السني بانقا

اضواء على
النظام القبلى
والأدارة فى السودان



السنى بانقا

اضواء على النظام القبلى والأدارة فى السودان

مقـــدمة

ليس هذا بحثا مفصلا عن قبائل السودان ونظام الادارة ولا دراسة لقبيلة بعينها ولكنه ملاحظات عامة عن الادارة وعن الخصائص المشتركة بين قبائل السودان الشمالى التى يجمعها تراث تاريخى موحد ولغة ودين واحد واثر هذا النظام القبلى على الحياة السودانية •

اما القبائل فى الجنوب فلم اتعرض لها لان ذلك يتطلب بحثا تفصيليا لكل قبيلة بمفردها وذلك لان السـمات المشتركة التى اشرت اليهـا سابقا لاتتوفر بينهما مما لا يساعد على دراسة مجملة وتدوين ملاحظات عـامة عنها •

كذلك لم اتعرض لنظام الحكومة المحلية عند التحدث عن نظـام الادارة فعلى الرغم من ارتباط الحكومة المحلية فى السودان بالنظـام القبلى الا انها تختلف عن النظام القبلى فى الاساليب والنظـريات لذلك تتطلب بحثا منفصلا خارج هذا الموضوع •

واخيرا يسعدنى أن أذكر باننى استنفدت كثيرا من دراسة استاذى الكبير الدكتور مكى شبيكه واراء المفكر العالم الدكتور سـعد ماهر حمزه عن النظام القبلى فى كتابه (التنمية الاقتصادية والجمود الاجتماعى)

فلهما شكرى وتقـديرى •

السنى بانقـا

المحتـــويات

صفحـــة

تطور النظام القبلى فى السودان الشمالى

المراحل التاريخية : ـ

رأينا ان تتتبع التطور القبلى خلال الفترات التاريخية حتى نستطيع ان نبدى ملاحظاتنا عن الخصائص العامة لهذا النظام فى الاوضاع السياسية والاجتماعية المختلفة فالنظام القبلى يلعب دورا اساسيا فى الحياة السودانية ويتأثر بالظروف والملابسات التى تمر بالقطر فى الحقب التاريخية المتعاقبة ويعتبر من المظاهر الاجتماعية الهامة التى تستحق العناية والدراسة من المختصين الذين يرغبون فى معرفة التيارات الخفية والعوامل المختلفة التى تسود هذا المجتمع ٠

الوضع القبلى فى عهد مملكة الفونج

شيخ القبيلة

شيخ القبيلة الذى يمثل رأس الرمح فى المجتمع القبلى يحتفظ اليوم تقريبا بصفاته التى كان يتصف بها فى الزمن السالف ٠

شيخ القبيلة الذى يمثل رأس الرمح فى المجتمع القبلى يحتفظ المملكة تقوم على اساس وحدة قبلية ويرأسها شيخ يعتلى الككر « العرش » ويصل الى مكان الزعامة والشهرة بالوراثة ولكن فى الاغلب بمقدرته فى قيادة القوم فى الحروب وبكرمه وعطفه على افراد القبيلة وغالبا ما يقع الاختيار على الابن الاكبر الا اذا ثبت عدم اهليته فعند ذلك يتم اختيار ابن اخر من ابناء المتوفى او أحد ذوى القرابة ٠

وافراد القبيلة يدينون بالولاء لشيخهم وهو الاب الاكبر الذى يرعى مصالح الجماعة ويحفظ الانساب وله اختصاصات اخرى مثل كفالة الامن والاشراف على سلامة الابار وجباية الضرائب وهو الذى يقرر متى تضرب القبيلة خيامها ومتى تشد الرحال وهو يتولى اكرام الضيوف •

ويتصف الشيخ أو الملك بالتواضع وياكل ويلبس كما ياكل افراد القبيلة وقد ذكر «وادنجتون» أن «طمبل» ملك ارقو كان يرتدى قميصا واحدا فاذا ماغسل القميص ليجف مكث الملك فى حجرته لا يفارقها الى ان يرتديه مرة ثانية •

وليس لهم ابهة الملك ولاعظم السلطان ونلاحظ انصفة التواضع تلازم المشايخ الى يومنا هذا فنجد ناظر القبيلة ومشايخها حتى ولو كانوا من المتعلمين يجلسون على الارض مع قومهم وياكلون ويلبسون مثلهم ويتبعون تقاليدهم وعاداتهم والا اعتبروا خارجين عن القبيلة وهذا مما يجلب لهم عدم الطاعةوالاحترام • وكان الشيخ فىعهدمملكة الفونج والى اليوم يلبس ثوبا ابيضا خفيفا ملائما للطقس ليقيه لفحة الحر بالنهار وزمهرير البرد بالليل وهو مصنوع من القطن الذى تعودوا زراعته بايديهم وكان يسكن نفس المنزل الذى يسكنه اليوم سواء ان كان من القش او الشمل او القطاطى وياكل العصيدة المصنوعة من الذرة وأدام من اللحم والمرق •

وبالاختصار فالشيخ هو المحور الذى تدور حوله القبيلة وهذا ما يسمى بالنظام الابوى (Paternal System) وهو نظام تتمخض عنه عقليه وفكريه من نوع خاص فالافراد يشعرون بانهم فى حماية القبيلة وان القبيلة مسئولة عنهم ادبيا وماديا ، مسئولية جماعية وفى ذلك يقول المستر « برى » فى كتابه : (The Productivity of African Labour)

« ان الفكرة الهامة التى تدور بخلد سكان الباتتو ليس هى الرغبة فى الحرية الفردية وانما هى الاحساس بنوع من الامـن والطأنينة التى تؤمن حياتهم الاقتصادية والمادية وتبعد عنهم شبح المجاعات وتضـمن لهم المستقبل فى حياة افضل مع أسرة فى زمن الشيخوخة .»

وكان الفرد فى عهد مملكة الفونج لا يترك قبيلته ويهاجر الى قبيلة اخرى وذلك لان مطالب العيش بسيطة فلا داعى لان يترك قبيلته وقـد تمتنع القبائل الاخرى عن قبوله او مصاهرته .

الحياة الاجتماعية داخل القبيلة

فى عهد مملكة الفونج

أحدث زوال الدولة المسيحية وتملك الفونج والعبدلاب تغييرا فى ملامح الحياة الاجتماعية فى السودان • وأبرز مظاهر هـذا التغيير كان يتمثل فى المظاهر الاسلامية والصبغة العربية التى بدأت تغزو اطار المجتمع وتنفذ الى صميم الحياة • ففى عهد مملكة الفونج أنتشر الدين الاسلامى وعمت الثقافة العربية الاسلامية •

ولم يبدأ هذا الغزو فى نفس الوقت الذى سيطر فيه الفونج وأنما سبقه باكثر من قرنين من الزمان ، منذ هجرة الرعيل الاول مـن علماء المسلمين والمتصوفة فى فجر الاسلام ووجدت هذه الدعوة أستجابة قبـل أن توجد مملكة الفونج وعندما سيطر الفونج كان تأثرهم بالدعوة قد مهد لانتشارها فكنت ترى فى أجزاء متفرقة من السودان دور العلم وخلاوى القرآن تنتشر والناس تسابقون لينهلوا من هذا المورد الجديد • وقـد تخرج فى ذلك الوقت عدد كبير من أبناء السـودان فى هـذه المعـاهد والخلاوى وصاروا بدورهم ينتشرون واكتسبوا علمـا ومعـرفة وانتشر هؤلاء فى جميع قرى السودان وكانت منزلتهم من نفوس المواطنين منزلة عالية الامر الذى جعلهم يسيطرون على الكثير من نواحى الحياة فمسائل الزواج والطلاق العبادات كان مرجعها هؤلاء وسهرات القرية بما تحفـل به من أذكار ومدائح كان يهيمن عليها هؤلاء وبأختصار فان ملامح الحياة ألاجتماعية ابان حكم الفونج كانت تصطبغ بالرواء العربى الاسلامى •

والى اليوم نشاهد بيوت العلم من المجاذيب منتشرة فى بعض اماكن السودان فى الشمال والشرق والان يسكن بعضهم على ضفاف نهر عطبرة ففى قرية (الادرقاوى) على نهر عطبرة يعيش جماعة من المجاذيب ولهم

خلاوى لدراسة القرآن يؤمها الطلاب من سكان البجا لتلقى مبادىء لقرآن والكتابة وحفظ القران والاحاديث ولهذه الخلوة مكتبة عتيقة نضم عددا من الكتب الدينية والصوفية ويعتبرها الطلاب مراجع لدراستهم ءمن الخلاوى والمساجد المشهورة فى شرق السودان مسجد (ودحاشى).

وصفوة القول فقد كانت الحياة الثقافية داخل القبيلة العربية المسلمة فى عهد مملكة الفونج ولاتزال تعتمد على دراسة القرآن والشريعة عن طريق مشائخ الطرق الصوفية .

فدراسة العقائد والاديان من الناحية الاجتماعية هامة جدا لتفهم الوضع القبلى وللتعرف على المجتمعات البدائية واساليبها فى الحياة .

وقد قلنا فى دراستنا عن الرشايدة ما ياتى :—

(ان الدراسات الاجتماعية لا تكتمل صورتها الا اذا تعرفنا على جميع اوجه النشاط الانسانى واثرها عند الجماعات والافراد)

فالديانات والعقائد تلعب دورا هاما فى حياتهم وهى الرابطة بين الانسان والقوى المطلقة فى عالمه الروحى الملىء بالغيبيات وتخلق هذه الرابطة طبقة من الناس تقوم بدور الوساطة بين العبد وربه وتفسر له ارادة الرب .

(والاشارة لهؤلاء الوسطاء هامة جدا فهم يؤثرون على المجموعة بنفوذهم الروحى فكثيرا ما يقاومون الاصلاح الاجتماعى زاعمين انه مضاد لارادة الله رغم ان الاديان السماوية تنادى به وتشجعه) .

(فدراسة الاديان والمعتقدات ضرورية من الناحية الاجتماعية خصوصا فى مجال الاصلاح والارشاد فمثلا من السهل ان تقنع الرشايدى المسلم بان النظافة من الايمان وان من واجب المسلم ان يتقى الامراض وبذا يستطيع ان يدرك قيمة الارشادات الصحية ويعمل بها)

وعلاقة الطرق الصوفية واثرها على الوضع القبلى فى السودان مهمة من الناحيتين السياسية والاجتماعية . فقد اعتمدت السياسة فى السودان على الطوائف الدينية والطرق الصوفية مستغلة نفوذ رؤساء الطوائف الدينية لجذب مجموعات القبائل — وقد عمدت الاحزاب السياسية لكسب تاييد القبائل عن طريق استغلال الشعور الدينى وقد اثرت الطرق الصوفية على الوضع القبلى فى السودان ومن المعلوم ان الوحدة القبلية قوية ومتينة ولكن بعد تسرب الطرق الصوفية داخل القبيلة اخذت تنخر فى عظام القبيلة وتضعف من شدة عصبيتها مما ادى الى خلق نوع من الترابط الروحى بين القبائل المختلفة .

نخلص من ذلك ان النظام القبلى فى عهد مملكة الفونج لم يتغير تغييرا كبيرا الى يومنا هذا فى السودان الشمالى خصوصا بين القبائل المسلمة فنجد نفس الصفات التى يتصف بها شيخ القبيلة وسبل معائشهم لم تتغير كثيرا — كذلك لا نجد تغييرا فى ثقافتهم وهذا مرده الى ان المجتمع القبلى قد تغلب عليه صفة الثبات والركود وليس معنى ذلك انه لا يتطور اذ ليس هنالك ظاهرة اجتماعية لا تقبل التطور ولكن الاختلاف فى الدرجة والكيفية ففى المجتمعات القبلية يسير التطور ببطء شديد .

ويرجع السبب فى هذا الى ان العوامل الأقتصادية ووسائل الانتاج داخل القبيلة لم تتغير طول الزمن خصوصا التى يقوم اقتصادها على الرعى وتعتمد فى حياتها على المرعى والماء وتترحل طلبا لذلك .

لهذا السبب نجد ان القبيلة منذ فجر التاريخ لا تختلف خصائصها العامة عنها اليوم .

التحولات التى طرأت على المجتمع القبلى فى الحكم التركى

كانت القبيلة فى عهد مملكة الفونج يحكمها ملك او شيخ وهو احد افرادها الذى وصل الى درجة الملك اما عن طريق الوراثة او بمقدرته على سيادة القوم وكرمه وعطفه على القبيلة .

وذكرنا ان من اهم مميزات هذا الملك صفة التواضع وهو الاب الاكبر للقبيلة وراعيها وكانت تدفع له الضرائب والجمارك ولم تكن هذه الضرائب باهظة وكثيرا ما كانت بعض القبائل تتفادى دفعها ولم يكن عليها ضغط فى ذلك ولم يسمع فى ذلك العصر بهجرة افراد القبائل الى جهات اخرى بسبب دفع الضرائب لهذا السبب كان من اهم خصائص عهد الفونج ان الوحدة القبلية كانت قوية ومتينة رغم الحروب التى كانت تنشب بين القبائل من فترة لاخرى .

وبالاختصار كان عهد مملكة الفونج عهد استقلال قبلى فالملك هو شيخ القبيلة ــ فما الذى طرأ على هذا الوضع اثناء الحكم التركى ؟

قبل ان نجيب على هذا السؤال يستحسن فى البداية ان نشير الى مميزات الحكم التركى والدولة العثمانية فى ذلك العهد .

يقول (بروكهاردت) فى كتابة « الدولة والنظم الاقتصادية » تعريب الدكتور راشد البراوى ما يأتى :ــ

« يطلب الباب العالى الموارد ولاشىء سواها ــ ولكى يتسنى للباشا اشباع هذه الحاجة تراه يعمد الى ارهاق الشعب ويضع على عاتقه الاعباء الثقال اما الباشا الذى يريد خيرا بالشعب ويقنع بالايراد العام فانه يجلب عى نفسه دون ريب سخط مليكه لا لانه عادل وانما لان عدالته تمنعه من النهب ومن نقل جانب ما ينهب الى الديوان واذا أراد الباشا

ان يبقى على نفسه فليس امامه من سبيل الا ان يسلم فى صمت رعاياه البائسين الى عصا المستبد . وكان الارتقاء عن طريق الرشوة والسرقة . فكانت الرشوة الطريق الى قلب السلطان وكان الباشا الذى يريد خيرا للشعب يجلب على نفسه سخط مليكه »

يتبين من كل ذلك ان الحاكم التركى اهتم اول ما اهتم بسلب مقدرات القبائل وارهاقها بالضرائب الفادحة التى لم تتعودها فى عهد مملكة الفونج .

فقد بلغت الضريبة فى السودان فى عهد الاتراك ان يدفع صاحب الحمار خمسة ريال وكذلك صاحب الشاة ـ ومن المؤسف ان الحكام الاتراك اجانب لا يعرفون احوال الناس ولم يهتموا بمعرفتها ودراستها فكانوا يعاملون السكان كما يعاملون الرعايا المصريين دون ادنى اعتبار لاختلاف الاوضاع وتباين الظروف وهذا مما يدل على ان الحاكم التركى رغم انه استعمارى شنيع الا ان الدولة العثمانية ما كانت لها سياسة او فلسفة تحكم بها مستعمراتها فكانت السياسة واساليب الحكم تتغير وتتبدل حسب مشيئة الحاكم ووفق ارادته .
ومما يدل على عدم معرفتهم باحوال القطر الذى يحكمونه فانهم كانوا يطالبون السكان بدفع الضرائب نقدا مع العلم بان اغلبية اهالى السودان تتعامل بالذرة والدمورية بدلا من النقود والريالات المتبادلة بين الناس قليلة ولا توجد اسواق كافية لبيع السلع .

ادى ادخال الضرائب بهذه الكيفية وارهاق الناس بها وسوء طريقة تحصيلها ، أدى هذا الى تغيير فى الوضع القبلى . فبعد ان كانت القبائل تحارب فيما بينها وتستعدى بعضها البعض حصل ان توجهت هذه الطاقات الحربية ضد المستعمر الجديد واساليبه التى لم يألفوها من قبل فبدأت بعض القبائل تفكر فى الثورة نتيجة لذلك .

ففى اثناء غياب اسماعيل باشا فى غزوته لجبال الصعيد اتفق محمد سعيد افندى وكيله والمباشر حنا الطويل على فرض الضرائب فسجلوا القرى ووضعوا ضرائب باهظة لم يألفها الناس من قبل .

وازاء ذلك الموقف الشاذ تخمرت فكرة الثورة والانقضاض على الحكومة وقد اشاعوا فيما بينهم ان الباشا قد قتل فى الجبال فشعر المعلم حنا بما يضمره السكان من كراهية وبغض للحكومة وعندماشعر اسماعيل باشا بروح الثورة اخذت تدب فى عروق الشعب عمل لتخفيض الضرائب وادخلت فيما بعد تحسينات فى طريقة جباية الضرائب فكان ينتخب اهالى كل قرية شيخا من بينهم يجمع ما ربط عليهم من مال ويؤديه الى شيخ كبير من المواطنين يتبعه وان لم يرضوا التبعية له فيؤدون المال للمديرية راسا وطلب الى المشائخ احصاء السواقى والاطيان وتثبت هذه بعد ان تراجع من المديرية وكان التحصيل فى اوقات الحصاد ويقدم للشيخ نظير خدماته مكافأة مالية .

ويجرى ربط الاموال سنويا فى جمعية بدار المديرية من اثنى عشر شيخا الى اربعة وعشرين فتبحث الطرق التى بها تدفع وطريقة تقسيمها وكما لهم ان ينظروا فى شئون المديربة باكملها .

أولا : نلاحظ ان ثورة القبائل على الضريبة ونظام تحصيلها قد اجبر الحكام الى تغيير اساليبهم فبعد ان كانت الضرائب تحصل بواسطة الاورطة العسكرية فى قوة واستبداد اصبحت تحصل بواسطة الاهلين انفسهم عن طريق مشائخهم ويمكننا بذلك ان نعتبر هذه الخطوة نواة الحكم غير المباشر الذى سلكته الادارة البريطانية فيما بعد بتولى مشائخ القبائل بعض من السلطات واشراكهم فى الادارة والى اليوم لا نجد تغييرا كبيرا فى تحصيل الجزية والضرائب بواسطة المشائخ والعمد .

ثانيا : نلاحظ ان افراد القبائل فى عهد الفونج لم تكن تترك قبائلها وتهاجر الى اماكن اخرى اللهم الا رحيل القبيلة باجمعها طلبا للمـــرعى والماء ولكن فى العهد التركى اصبحت الوحدة القبلية اقل تماسكا وذلك بسبب ارهاق الافراد بالضرائب الباهظة وازاء هذا الموقف ترك بعضـــهم قبيلته وفر ملتجئا بالحبشة وهرب اخرون من مديريتى دنقـــلا وبربر • بعد ان وضعت ضريبة باهظة على الســـاقية بلغت ست جنيهات وتتيجـــة لذلك ترك المزارعون سواقيهم معطلة ورحلوا الى الجنوب واشتركوا فى تجارة النيل الابيض وبحر الغزال وصار الرجـــل من الجعليين والدناقله لا يشاد بذكره الا اذا ترك زراعة الارض والتحق بكبانيات بحر الغـــزال واقتنى المال والرقيق وغامر وخاطر من اجلهما والى اليوم نجد جمـــاعات منهم منتشرة فى بقاع السودان المختلفة •

ثالثـــا : ادخل نظام الامن على الوضع القبلى فى زمن الاتراك وقد كانت من قبل الحروب تنشب فيما بين القبائل لابسط الاسباب فقد كان دخول قبيلة فى ارض الاخرى او تعديها على ميائها سببا كافيا لقيـــــام المنازعات والحروب ولكن فى عهد الاتراك كان لابد للحاكم الاجنبى من ان يشيد دعائم حكمه على اساس متين حتى يستطيع ان ينفذ الاهداف والاغراض التى جاء من اجلها ولا يمكن أن يتم له ذلك الا اذا أخضـــع القبائل وسيطر عليها سيطرة تامة حتى يتمكن من تحصيل الضريبة وسلب مقدارت البلاد من محاصيل زراعية وثروة معدنية وحيوانية وطاقـــــات بشرية ولهذا اهتم الاتراك اهتماما بالغا باستتباب الامن وتنظيم الادارة •

شيخ متواضع وحاكم مستبد

ذكرنا فيما سبق ان الملك فى عهد الفونج هو شيخ القبيلة وابوها الاكبر ويمتاز بالتواضع ولين الجانب وحسن معاملة افراد قبيلته وليست له ابهة السلطان ولا صولجان الملك وهو فرد من افراد القبيلة يعمل لرعايتها وحمايتها ولكن قد تغير هذا الوضع بعد الفتح وجاء غاصب جديد مستبد مرتش يمتاز بالصلف والكبرياء ــ اذل افراد القبائل وارهبهم وعاملهم معاملة العبيد الارقاء وكان الحاكم عندما يخاطب الناس عن طريق الولاة يقول « بلغوا عبيد بابنا العالى » وهو نفس السلوك الذى كان السلطان يعامل به الولاة والرعايا فالسلاطين حينما يخاطبون الولاة يقولون :

« اما بعد فقد رأت ارادتنا السنية الشاهنية ــ فاذا اردت اكتساب رحمتنا الملوكية فتعال الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا »

وليس ادل على هذا الصلف والكبرياء والغطرسة من المقابلة التى تمت بين الملك نمر واسماعيل باشا عندما طلب الاخير من الملك نمر والمساعد ان يحضرا من النقود والماشية والجمال ما يقدر بنحو العشرين الف جنيه ليقدمها هدايا ارضاء لوالده ولكن قد دهش الباشا عندما أبدى نمر اعتراضه فى لغة قوية وما كان لنمر ان يخاطب بغير هذه اللغة وهو لم يتعود هذا الصلف وخصوصا من شاب مغرور كاسماعيل باشا وهو الملك المهاب المحترم من قبيلته الجعليين ولم يقف هذا الشاب المفتون الغر عند هذا الحد بل سولت له نفسه الطائشة ان يصفع الملك على وجهه بغليونه الطويل فكانت نتيجة هذا الطيش والنزق والهوس ان قتل اسماعيل حرقا واختناقا فى حريق شندى المشهور .

وبذلك ادى بفعلته الحمقاء الى اكبر مجازر عرفها تاريخ السودان قتلت فيها اليتامى وسفكت دماء الابرياء بقيام حملة الدفتردار الانتقامية

التى ازهقت فيها ارواح الالاف من الحسانية والجعليين بعد ان باع نفسه للشيطان وارتكب افظع الجرائم الانسانية ــ وما هذا الا نتيجة الرعونة الرعناء التى اتصف بها الحكم التركى .

فقد كانت اهانة الناس وأذلالهم من ابرز صفات ذلك العهد البغيض بعد ان كانوا فى عهد الفونج يتباهون بشجاعتهم وكرمهم ويعتزون بفرسانهم ووقائعهم فى شمم واباء .

ولكن الان فى هذا العهد المشئوم قد نكست الرؤوس وانحنت الجباه فى ذلة وانكسار واصاب افراد القبائل الهلع والذعر بانتشار الباشبوزق فى البوادى والقرى ، يلهبون ظهور المواطنين بالسياط ويذكرونهم بسلطة الميرى ونفوذ الحكومة بطريقة الجلد والرشوة والتخويف فلا غرابة ان ضج الاهالى وجأروا بالشكوى حتى ضربوا المثل الشهير « زولين فى تربة ولا ريال فى طلبه » .

فهذه المعاملة المتوحشة من قبل حكام الاتراك وولاتهم تركت اثرا سيئا عند القبائل السودانية ونظرتها نحو الاتراك وبالرغم من ان اسلام السودان يصل الى درجة التعصب وبالرغم من أن الاتراك كانوا يدعون انهم حماة الاسلام انذاك وان السلطان العثمانى هو خليفة المسلمين قاطبة فان السودانى الذى كان وادعا فى قريته اشرب بغض التركى وكره منظر الجندى التركى بطربوشه وسوطه اذ ظهوره فى القرية لاول وهلة يشيع فيها الخراب والاضطراب .

هكذا تأثرت الحياة الاجتماعية داخل القبيلة فبعد ان كان الفخر والاعتزاز ديدنهم اصبحت الذلة والانكسار مظهرهم وحل الخور والضعف مكان الشجاعة والاقدام . ولا عجب فهذه صفات ملازمة للشعوب المقهورة والمغلوبة على أمرها .

والى اليوم اصبحت صفات الصلف والعجــرفة مرتبطة فى اذهــان الناس بالعهد التركى وقد يطلق اسم « التركاوى » او « الحــاكم » على الادارى وفى قولهم « التركاوى ولا المتروك » رغم ان مفهوم الادارة فى العهــد الوطنى يختلف عنه فى عهد التسلط الاجنبى •

واليوم الادارى وطنى يعمل لخدمة بلاده وشعبه ولكن المفهـــوم التركى للادارة لا يزال عالقا فى اذهان بعض الناس وبالــذات فى الاماكن القبليــة •

أثر النظام القبلى على الثورة المهدية

تحدثنا فى الموضوع السابق عن التفكك والانهيار الذى اصـــاب الوضع القبلى اثناء العهد التركى والان نعود لنسجل بعض ملاحظاتنا عن التغيير الذى طرأ على ذلك الوضع واثره على المهدية •

اسباب الثورة المهدية

لابد لنا فى هذا المجال من ان تتعرف باختصار على الاســباب التى عجلت بنهاية العهد التركى وادت الى الثورة المهدية • هنالك اسباب متعددة ذكرها المؤرخ « نعوم شقير » واشار اليها المستر « هولت » فى كتابه عن المهدية ولكننا نورد فى هذا المعنى ما يقوله الدكتور مكى شبيكه ملخصا لهذه الاسباب :—

« وهنا يجدر بى ان الاحظ على ماكتبه المؤرخون من الاسباب هى فداحة الضرائب وتفشى الرشوة والعنت والظلم والمناداة بابطال الرق وقد تكون بعض هذه الاسباب او كلها مجتمعة السبب فى انضمام البعض الى راية المهدية وقد يكون المهدى استعان بالبارزين ممن كانوا فريسة لواحد أو أكثر من تلك الاسباب لكن الناحية التى يهملونها والتى فى نظـــرى المحرك الاول للثورة هى المعتقد الدينى وشخصية المهدى »

ويرى الجنرال (غردون) بعد ان جاب البلاد ان اسباب الثورة لم تكن دينية بل هى فى اساسها ثورة على النظام التركى الشركسى وان الـــدين ما هو الا غشاء خارجى لها وان المحرك للثورة هم كبار ملاك الرقـــيق ويعاونهم من اكتووا بنيران الضرائب الفادحة ومن نزحوا هربا من نـــير المظالم القاسية •

ونحن هنا من ناحينا لا نريد ان ندخل فى جـــدل فقهى فى الصراع القائم بين الاتجاه اللاهوتى الذى يفسر التاريخ عن طريق العوامل الدينية الخارجة عن الظروف الموضوعية والتفكير الذى يؤكد ان العـــوامل الاقتصادية هى التى تلعب دورا اساسيا فى تفسير الحوادث التاريخـية والاسباب الاخرى ما هى الا مساعد لها • ولكننا فقط نريد ان نتـاقش فكرتين :

(١) اولا كيف ساعد النظام القبلى على نجاح الثورة المهدية ؟

(٢) ثانيا كيف ادى النظام القبلى الى انهيار حكم المهدية ؟

وحـدة القبائل

ان توحيد القبائل عضويا وفكريا كان الاسلوب الراقى والتكتيك الواعى الذى أدى الى الانتصارات الباهرة التى أحرزتها الثـــورة فى بداية عهدها فقد استطاع المهدى بثاقب فكرة وبعد نظره انيتعمـق فى العوامل الخفية التى تسود المجتمع ويتعرف على خصائص النظام القبلى الذى يتكون منه •

فادرك بعبقريته الفذة الملهمة انهمتى استطاع ان يوحد هذه القبائلتحت راية واحدة امكنه ذلك من التغلب على جحافل الاتراك وتبـديد فلولهم فلجأ اول ما لجأ الى اشباع الروح الحربية فيـهم واذكاء حب القتـال فى نفوسهم فتجمعت القبائل من كل فج عميق ملبية داعى الثورة عـازمة فى اصرار على التخلص من نير المستبد الغاشم •

فانضمت القبائل للمهدى بعد هجرته من ابا الى الغرب من قبـائل دغيم وكـنانة وسـكان الجبـال والعـربان النازحـين مـن الاودية ومنذ ان غادر أبا صار يلحق به الانصار من الجزيرة وجهات النيل الابيض وكردفان والجبال بعد ان تم له الانتصار الاول فى أبا كذلك صـارت

تتجمع حواليه القبائل كلما انتقل من انتصار الى اخر خصوصا بعد انتصاره على حملة راشد والشلالى التى كانت من اشد المعارك بعد واقعة الشلالى وهكس لانقطاع املهم فى الحكومة وبعد ان تبين لهم ان المستقبل للمهدى رغم انه لم ترسخ عقيدتهم فى المهدية . ولا شك ان روح القتال التى الهبها المهدى فى القبائل مرتبطة برباط وثيق بالحالة الاقتصادية السيئة التى عاناها الناس فى ذلك الوقت فقامت من اجل ذلك التحركات فى مختلف البلاد بعد ان انطلقت الثورة من عقالها ورأوا فى حركة المهدى الخلاص من هذا العبء الثقيل الذى ناؤا تحته حقبة من الدهر وليس أدل على ذلك من حركة احمد المكاشفى الذى التف حوله قبائل رفاعة الهوى جنوب سنار فتجمعوا حوله للتخلص مما ترهقهم به الحكومة من ضرائب كذلك ثورة الشريف احمد طه شرق النيل الازرق بين رفاعة وابى حراز وقد تحمس للمهدية رغم انقطاع الصلة بينه وبين مقر الدعوة وما ذلك الا تخلصا من الاوضاع السيئة .

ازداد حماس الناس كلما انتقلوا من انتصار الى أنتصار وأرووا ظمأهم من القتال فارتفعت روحهم المعنوية فعندما تحرك المهدى من الابيض الى الرهد انضم اليه الانصار والمبايعون من شتى الجهات وكنت ترى كل يوم وفودا جديدة من الجزيرة وسنار وكسلا والجعليين وقبائل الغرب كلها اتخذت طريقها لتبايع المهدى وتفديه بكل مرتخص وغال ولسان حالهم يقول :

الحرب صبر واللقاء ثبات
والموت فى شان الاله حياة

وهم يحملون السيوف والحراب فهذه الصور الرائعة تؤكد عبقرية المهدى الحربية ومقدرته الفائقة التى استطاع بها ان يوحد القبائل تحت امرته بعد ان ادرك ميكانيكية النظام وعمد على الاستفادة منه فى اذكاء نار

الثورة الكامنة فى نفوسهم الى ان توج كفاحه باكاليل النصر واصبح السودان ملك لبنيه بعد سقوط الخرطوم .

العصبية والدين

ادى توحيد القبائل تحت راية المهدى الى ضعف العصبية القبلية اذ قوى الشعور الدينى الذى اثاره المهدى وربط القبائل برباط روحى موحد فالدين يولف القلوب ويوجهها وجهة واحدة ويذهب بالتنافس والتحاسد ويؤدى الى اتفاق الاهواء ويحمل على التعاون والتعاضد .

الوحدة الفكرية

ذكرنا ان القبائل كانت مشتتة مبددة فى زمن الاتراك وقد ساعد على هذا التبديد نوع الثقافة الموجودة فى ذلك الوقت فقد انتشرت الطرق الصوفية انتشارا كبيرا وتعددت الطرق حتى ظن ان كل شيخ يقوم بتاسيس دين جديد حتى ضل الناس واصبحوا يوجهون انظارهم لمشايخهم بدلا من ينبوع الدين الاصيل وهو القرآن والسنة واختلفوا فيما بينهم وتشعبوا انصارا واحزابا كل يدعى بطريقته وهذا مما عمق العداء والبغضاء بينهم .

فكان المهدى اول من التفت الى هذا الانقسام وتنبه الى ضرره وكان لابد له من سلاح فكرى وايدلوجية جديدة توحد الصف وتدعو للتكتل بدلا من الفرقه والتطاحن فادرك بخياله الخصب انه لابد من ان يجمع القبائل تحت فكرة واحدة حتى يستطيع ان يهزم العدو العنيد فهذا يدلنا على ان المهدى كان مفكرا سياسيا من الطراز الاول وذا فطرة سليمة فى ادراك الاساليب الصحيحة فى تجمع الناس تحت لواء واحد فبعد ان وحد القبائل عضويا واضعف العصبية القبلية استطاع ان يوحدهم فكريا .

ركز المهدى الوحدة الفكرية على اساس ان تعدد المذاهب واختلاف المسالك الدينية والاكداس من الكتب لتشرح وتصحح وتحشى الصفحات فى مسائل فرعية لا قيمة لها من حيث الدعائم والاركان التى تقوم عليها العقيدة الاسلامية ووجهات النظر المختلفة من العلماء كل ذلك حجب نور الحق والدين وباعد بين المسلم ومصدر الضياء وهما القرآن والسنة وادى بذلك الى انقسام فى الرأى واختلاف فى التفاسير .

ويرى المهدى انالاسلام ليس دين الخاصة والعلماء ولكنه دين الفطرة الانسانية التى تتلقى الهامة دون عناء وبهذا المعنى سهل المهدى على الافراد فهم الدين وقرب بينهم .

قال الفكى جلال الدين للمهدى :

« يا سيدى العلماء يسألون عن طريقتنا ومذهبنا فما تقول لهم ؟ »

قال : « قل لهم طريقنا لا اله الا الله محمد رسول الله ومذهبنا السنة والكتاب وما جاء من عند الله على رؤوسنا وماجاء من النبى صلى الله عليه وسلم على رقابنا وما جاء من الصحابة ان شئنا عملنا به وان لم نشأ تركناه »

قيم جديدة

ومن ناحية اخرى بث المهدى فى المجتمع قيما جديدة تدعو لوحدة الصف ـ فالنظام القبلى يقوم على التفاخر والتعالى بالحسب والنسب . طالب المهدى بنبذ هذه الصفات ودعى الى الزهد بدلا من الفخر وبث روح التقشف فى نفوسهم وحكمه ومواعظه تشير الى ترك الدنيا وساوى بينهم فلا فضل لقبيلة على اخرى ولا لرجل على اخر الا بسابق خدمته فى المهدية .

فالكل سواء ومن لازموه قبل الرسالة هم اصـحاب المرتبة الاولى ويقال لهم ابكار المهدى ويليهم فى المرتبة والمقام انصار ابا فقدير فالابيض فهكذا •

الزعامة الوراثية

الزعـامة الموروثة اهم خصائص النظـام القبلى ـ حـارب المهدى هذا المبدأ التقليدى فما كان فى زمنه تنال الامارات والرتب بالوراثة أو الغنى ولكن بالاخلاص والانضمام الى راية المهدى •

المحسوبية

كذلك قضى المهدى على المحسوبية التى تميز المجتمـع القـبلى فلم يعرف عنه انه اثر ذوى قرباه بل كان الناس فى نظره سـواسية كاسـنان المشط يقربهم اليه اخلاصهم وتفانيهم للدعوة •

العادات الضارة والتقالية

كذلك حارب المهدى العادات الضارة والتقاليد التى ترتبط بالنظام القبلى كالسحر والايمان بالارواح والشعوذة وكتابة الاحجبة وزيـارة الاضرحة وكل ماله علاقة بالعادات القبلية البالية ونلاحظ ان الاتجاه نحو تجمع الناس اخذ يتخذ مظاهر مختلفة فى ايام المهدى واية ذلك نجد انهم كانوا يلبسون لباسا موحدا دلالة على المساواة بين الناس ونبذ التفـرقة بين الغنى والفقير فعمم لبس الجبة المرقعة من الخلفاء الى المجاهد العادى •

البطـل القائد

نخلص من كل ذلك ان النظام القبلى بطبيعته يدعو للتفرقة وتشتيت القوى مالم يجد العبقرية الفذة والقيادة الرشيدة التى تستطيع ان تجمع شمله وتصهر كيانه •

فكانت هذه الصفات قد اجتمعت فى شخصية المهدى وقد قال فى وصفه اسماعيل عبد القادر الكردفانى «انه كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ولا غليظ ـ يتفقد اصحابه ويسأل عنهم ـ اوسع الناس صبرا واصدقهم لهجة واكرمهم عشرة يصفو ويصفح متخلقا بالقرآن المجيد ـ عرف بالتواضع ولين الجانب ـ اكبر الناس شفقة على خلق الله يأكل مع الخادم ويحمل حوائجه بنفسه من السوق » .

هذه الصفات العظيمة زيادة على مقدرته الحربية الخلاقة هى التى تكون المفهوم القيادى لدى افراد القبائل وهى التى تمثل صور البطولة والمثل العليا فى ذهن الفرد العادى داخل القبيلة وبهذه الصفات تسهل قيادة القبيلة ويتم ولاءها فلا بد لشيخ القبيلة من ان يتحلى بشىء من هذه الصفات حتى يستطيع ان يأسر لب قومه ويمتلك جنانهم وقد استطاع المهدى ان يفعل كل ذلك .

كيف أدى النظام القبلى الى انهيار حكم المهدية ؟

العصبية القبليـة

بعد موت المهدى اشتدت العصبية القبلية بعد ان كانت ضعيفة فى ايامه بسبب التهـاب الحماس الدينى وبدأت تظهر الخلافات بـين القبائل واثارة الكراهية والبغضاء من جديد والعصبية هى ايضا عامل من عوامل الهـدم والتخريب التى قضت على الامبراطورية العـربية فجزأتها ومكنت الاجانب من من الاغارة عليها والطمع فيها .

ولقد عدد الاستاذ ساطع الحصرى فى كتابه «دراسات عن ابن خلدون » الادوار الاجتماعية التى تقوم بها العصبية . بينما يقـرر ابن خلدون من جهة ان العصبية ضرورية لتأسيس الدولة يلاحظ من جهة اخرى انها قد تعرقل تأسيس الدولة وذلك ان كانت متعددة ومتخالفة ويقول ابن خلدون «ان الاوطان الكثيرة القبـائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة بسبب اختلاف الآراء والاهواء وتعدد العصبيات فيكثر الانتقاض على الدولة» ويعتقد ابن خلدون ان السبب فى وجود العصبية كامن فى الخصائص الانسانية كالشفقة والنعـــرة على ذوى الارحـــام .

وكما قلنا فان الخلاف قد اشتد بعد موت المهدى وزادت الشقـة بين اهل الغرب واهل النيل ـ فقد آل الحكم للخليفة عبد الله بعد موت المهدى فبايعه اهله من البقارة واهالى الغرب وناصروه ولم يكن قـد تعمقت فيهم الروح الدينية التى تدعو للتســامح والعفـو ولكنهم كانوا يمجدون الفروسيــة والبطولة اثناء الحروبات فالمهدى اروى ظمأهــم الطبيعى لحب القتـــال وكان يمثل فى نظرهم البطل الذى قادهم مــن نصر الى آخر ضـــد الحكومة .

اما اهـــل النيل وسكان المـــدن فقد اصابهم نوع من التقـــدم واكتسبوا دراية بالعلم والدين ومعرفة بالتجـــارة وصاروا يتعالون على اهل الغرب بجفـــوتهم وجلافتهم ويرى اهـــل النيل ان البقارة ومنهـــم الخليفة قد اغتصبوا الحكم بينما هم احق به وبالولاية فهم على معرفة وذو صلة ورحم بالمهدى مؤسس الدعوة .

ويرى البقارة من ناحيتهم ان من الطبيعى ان ينالوا الحكم بعد أن ناصروا المهدية فكرة وجهـــادا وآمنوا بها خصوصـــا وهم بطـــانة الراعى الجـــديد ويزيد من نار هذا الخلاف أن اهـــالى النيل يتهمون الوالى الجديد بالمحسوبية التى قضى عليها المهدى فى ايامه ويرون أن الخليفة يناصر اهله وقد اصطفى اخاه الامير يعقوب واصبح له نفس المركز الذى كان يحتـــله الخليفة من المهدى واصبح القوة الحقيقـــية وراء العـــرش والمشـــرف عـــلى الجيش يعـــين قواده ويمـــده بالزاد والمعدات الحربية ويمثل فى نفس الوقت وزير الداخلية بالنسبة لعمال الاقاليم كذلـــك احتل مركز محافظ امدرمان العـــاصمة والمشرف على شئون بيت المال وبالاختصار فقد كان يمثل رئيس الوزراء .

ولكن مهما قيل عن الصفات الجميلة التى كان يتحلى بها هذا الرجل من كرم وتوضع وسعة صدر الا ان مركزه هذا اثار الغيرة فى نفوس اهالى النيل مما اعتبر نوعا من المحسوبية وزاد من شقة الخلاف تماما كالخلافات التى وقعت فى ايام الامبراطورية الاسلامية .

تجمعت اسباب الخلاف بين اولاد البلد واهل الغرب حتى كادت ان تنتهى بحرب اهلية وكانت هذه الخلافات من اهم عناصر الضعف فى جسم الدولة المهدية وبسببها ارجئت الغزوة التى كان مزمعا توجيهها لمصر براية الخليفه شريف لانها كانت تضم اولاد البلد وقطعت المرتبات التى ينالهـــا الاشراف من بيت المال وابعـــد الاشراف ومن معهم من اهالى النيل مـــن شئون الحـــكم والادارة واســـتأثر أهـــل الغـــرب بالجـــاه والنفـــوذ

أدى هذا النفور الى آثارة العادات القبلية البغيضة كالنهب والسلب والتعدى على الانفس فقد استطاع المهدى فى ايامه ان يوجه هذه الطاقات المخربة ويصهرها فى بوتقة النضال ضد العدو الغاصب فوجدت متنفسا فى المواقع والحروبات •

اما وقد ذهب المهدى وفتر الحماس الدينى عادت التقاليد القبلية الى طبيعتها ونشبت اظافرها تنهش وحدة القطر وكان الاعراب يهددون سلامة الدولة ويتعدون على الافراد وكان الخليفة من جانبه يزجرهم ويتوعدهم ويأمرهم بمعاملة الناس بالحسنى والرفق ولكن لم تتبـــدل نفوســـهم وعقلياتهم وقد شبوا على الفوضى والظلم وما كان للخليفة ان يجردهم من اسلحتهم او يستغنى عنهم وهم حماة الدولة ضد اعدائها فى الخــــارج وبطانته واعوانه على منافسيه من اهل النيل فى الداخل •

وقد اثرت هذه الخلافات على سياسة الدولة الخارجية فنجد مثـــلا ان من اسباب فشل حملة النجومى لغزو مصر الخلاف الذى نشـــب بين القائد النجومى ونائبه مساعد قيدوم لان الاخير كان من اهالى الغرب •

الصراع بين ثقافتين

اوضحنا ان المهدى استطاع ان يوحد القبائل فكريا ويقضى مؤقتـــا على تعدد المذاهب واختلاف المسالك الدينية ولكن بعد موته بدأت تظهر هذه الاتجاهات الاسلامية من جديد •

وكان بعض انصار هذه المذاهب قد اسلم كرها وخوفا من المهـــدى بعد ان احرقت كتبهم التى افنوا زهرة عمرهم فى متونها وشروحها فما ان حانت الفرصة بعد موت صاحب الدعوة الا وانقسم الناس شيعا واحزابا يدعون لمذاهبهم ومسالكهم المختلفة فكانت دنقلا وبربر والجزيرة تعـــج بارباب الطرق الصوفية •

ساعدت هذه الانقسامات المذهبية على الخلاف القائم بين اهـــالى النيل واهالى الغرب وقد قال المهدى :—

« ستة لا يرضون بامرنا وهم العالم والظالم والترك وتربيتهم واهل الشان واهل البرهان » ٠

كانت هذه الخلافات المذهبية والقبلية من اهم العناصر الضعف فى حكومة المهدية منذ ان استقرت فى امدرمان ٠

وبهذا نستطيع ان نقرر ان النظام القبلى قد ساعد فى قيام الــدولة المهدية كما ادى فى نفس الوقت الى تفكك اوصالها واخيرا كان من عوامل التخريب التى قضت عليها ومكنت جيوش الاحتلال من الانتصار عليها ٠

سياسة الحكم البريطانى ازاء الوضع القبلى

هكذا انتهت المهدية واعلن رسميا قيام الحكم الثنائى ورؤى ان يقوم البريطانيون بتنظيم الادارة فى السودان كما جاء فى كتاب « مصر الحديثة » للورد كرومر حتى يتم خضوع القبائل الثائرة .

ومنذ البداية كانت سياسة الادارة البريطانية نحو القبائل السودانية تقوم على اساس تحقيق غرضين هما : —

اولا : — الامـن

ثانيا : — الضرائب

ولتنفيذ هذين الغرضين وضعت النظم الادارية الملاءمة حسب الظروف والملابسات ففى فترة الحكم الثنائى كانت الادارة البريطانية تتخذ اشكالا مختلفة املتها ظروف سياسة واقتصادية واجتماعية معينة وهذه الاشكال تتلخص فى الاوضاع الاتية :

اولا : الحكم الاتوقراطى المباشر

ثانيا : الحكم غير المباشر ونظرية الادارة الاهلية

ثالثا : الحكومة المحلية

ونأتى الان لنتحدث بالتفصيل عن وسائل الادارة البريطانية .

الامـن

نجد أن حفظ الامن كان الوسيلة الرئيسية التى سلكتها الادارة البريطانية لتحقيق الاغراض التى من اجلها جاء الحكم الاجنبى ولاستتباب الامن لجأت الادارة البريطانية لتطبيق الحكم الاتوقراطى

المباشر ولكى نفهم هذا النظام العسكرى الذى طبق فى المرحلة الاولى من الادارة البريطانية لابد لنا ان نرجع ونقارن بينه وبين النظـــام التركى السابق حتى نستطيع ان نقرر الى اى مدى اســـتفاد الانجليز من تلك التجـــربة •

المقارنة بين نظامين

فقد استطاع الحكم التركى بماله من سطوة وجبروت ان يخضـــع القبائل السودانية ويرهبها كما ذكرنا وبذا استتب له الامن فكانت الادارة فى عهد محمد على تدار على نظام عسكرى اتوقراطى صارم على نمـــط الادارة فى مصر آنذاك وهو مقتبس من النظام التركى الذى كان ينتظـــم اجزاء الدولة العثمـــانية •

ففى عهد محمد على بدأت الادارة تأخذ شكلا جديدا بعد ان كانت تقوم على نظام الحكمدارية المتمركزة فى شخص واحد يخضع لوالى مصر ادخل نظام اللامركزية وقسمت البلاد الى خمس مديريات : دنقلا وتشمل المتمة وشندى ومديرية الجهات العليا وتبدأ من المتمة وشندى وتشـــمل الخرطوم والنيل الازرق حتى ود مدنى والاقســـام الشرقية للنيل الازرق وكذلك مديرية سنار ومديرية فزوغلى وهى اعالى النيل ومديرية التـــاكا وضمت اليها سواكن ومصوع •

وعندما وضع الانجليز اسس الادارة استفادوا من نظرية اللامركزية التى وضعها الحكام الاتراك ــ ففى بداية الحكم الثنائى قسمت البـــلاد الى مديريات والى مراكز واضطلع باعباء ادارتها ضـــباط الجيش المصرى من الانجليز والمصريين فالمدير الانجليزى يساعده انجلـــيزيان وعلى كل مركز يقوم مامور مصرى ومعه معاون او اثنان •

والمفتش يراقب اعمال المآمير واعمال البوليس من حيث التحقـــيق

الجنائى وحفظ الامن وتقديم تقارير عن الموظفين الذين يكونون بدائرة مركزه ، يقدم المفتش التقارير للمدير اذا أبدى احد الموظفين عجزا أو أرتكب ظلما او كانت حياته الخاصة مجافية للسلوك والاداب العامة كذلك يكون مسئولا لدى المدير عن جمع الضرائب .

وبعد ذلك اصدرت القوانين التى تنظم حق ملكية الارض واللوائح التى تنظم الضرائب والقوانين الجنائية والمدنية .

علاقة القضاء بالادارة

كان القضاء فى العهد التركى يمارس فى الاحوال الشخصية بمقتضى الشريعة الاسلامية ويقوم عليه قضاة من عواصم المديريات ــ اما القضايا الكبيرة فينظر فيها المديرون بانفسهم وبعضها تحال للقاهرة للبت فيها وفى المدن الكبيرة توجد ضبطية قضائية تباشر التحقيق فى الجرائم وتقدمها للمحكمة .

وعندما بدأ الحكم الثنائى كانت الجرائم تحاكم غالبا فى المديريات وهنالك انواع من المحاكم مثل محكمة المدير ويرأسها المدير أو موظف كبير له سلطة قاض يجلس بمفرده والمحاكم الشرعية تعالج قضايا الاحوال الشخصية ولهذا السبب نجد ان العمل القضائى مرتبط بالعمل الادارى منذ فجر التاريخ وان مبدأ فصل السلطات حديث على الاوضاع فى السودان وقد جاء نتيجة حتمية لتطور الحياة النيابية والدستورية .

ولذا نرى ان الحكم المباشر الذى قام فى عهدا لادارة البريطانية الاول يتطلب جمع السلطات فى يد الحاكم حتى يتسنى له القيام بممارسة واجباته التنفيذية والقضائية ومن هنا نجد ان العلاقة بين الادارة والنظام القبلى تقوم على رابطة القانون وقد اجتهد المشرع ان يوفق بين القوانين

الوضعية والعادات والتقاليد القبلية مع مراعاة اسس العدالة وبذا وضعت قوانين المحاكم الاهلية اساسا لنظرية الادارة المحلية •

نخلص من كل ذلك ان الادارة اللامركزية بدأت فى السـودان فى عهد محمد على وقام عليها الوضع الادارى فى عهد الحكم الثنائى •

ثانيـا :—

انه ليس للحكم التركى سياسة مرسومة لادارة البلاد غير التعليمات التى كان يصدرها الحاكم من مصر من وقت لاخر مثل الدعوة للتعاون بين المديرين وقد كانت الادارة تعتمد على حكم الفرد فكلما كان الوالى قوى الشخصية شديد النفوذ استطاع ان ينفرد بالحكم وهذا هـو السـبب الذى جعل محمد على يرجع ثانيا لنظام الحكمدارية ولكن بدأت الادارة البريطانية بداية منظمة بعد ان استفادت من الاوضاع البالية التى سبقتها واسترشدت كذلك بتجاربها فى المستعمرات الاخرى لهذا السبب نجحت الادارة البريطانية فى استتباب الامن واذعنت لها القبائل السودانية قهرا وفرقا ولكن الادارة فى عهد الاستقلال عندما تهتم بالامن يكون ذلك على اساس مفاهيم جديدة تختلف عما عرف فى عهد التسلط الاجنبى فالمقصود بالامن ليس الرهبة والخوف ولكن اشاعة الطمأنينة فى نفوس الافـراد والجماعات ووفرة العيش الرغيد والهناءة فى ظل مجتمع مستقر وهـذا لا يتم الا عن طريق التقدم الاقتصادى والاجتماعى وتنظيمه تحت ادارة رشيدة وطنية وبذا فقط يشعر الفرد بالامن المنشود وعند ذلك يسـهل على الادارى تحصيل الضرائب من الافراد والقبائل بعد ان يحس المواطن بانه يؤدى واجبا مقدسا لبلده يعود عليه بالنفع فى شكل الخدمات الصحية ورفع مستوى المعيشة وبالاختصار يجد الفرد الدافع الكافى والحمـاس الواعى لتسديد ما عليه من ضرائب ومستلزمات وينتفى بذلك مفهوم اليوم للضريبة بانها عبء ثقيل على كاهل المواطنين من حضر وبدو •

حالة القبائل عند الاحتلال

ذكرنا ان العوامل التى ساعدت على استتباب الامن عندبداية الحكم الثنائى الحالة التى كانت عليها القبائل فى ذلك الوقت . فقد كانت حالة القبائل مضعضعة مفككة غير ان بعضها استرد كيانه تحت امرة مشائخهم مثل قبيلة الكبابيش والشكرية اما القبائل الاخرى فقد كانت مشتتة بعد ان انهزمت وانكسرت شوكتها وبعضهم عاد الى مواطنهم السابقة وبدأ يستقر كذلك بدأت فلول جيوش الخليفة الآتية من الغرب تستقر فى اماكنها الجديدة .

ادى هذا الوضع ان نشأت جماعات قبلية متفرقة صغيرة تحت رئاسة مشائخها ولكن لم تسمح الحكومة فى ذلك الوقت بقيام تجمعات قبلية كبيرة او تكتل قبائل مع بعضها البعض خوفا من انبعاث روح الثورة من جديد بين القبائل .

وقد كانت هذه الوحدات القبلية الصغيرة نواة للادارة الاهلية فيما بعد خصوصا بعد ان خول لرؤساء العشائر بعض الاعمال الطفيفة فى فى بادىء الامر كجباية الضرائب نظير مكافآت نسبية تدفع لهم .

استمر نظام الادارة المباشرة هذا الى سنة ١٩٢١ ويعتبر ناجحا من وجهة النظر البريطانية وذلك لان طبيعة المرحلة السياسية والاجتماعية تحتم ذلك .

وثانيا لان عدد السكان قد نقص نقصا شديدا فى زمن المهدية مما سهل عمل الادارة بهذا الشكل .

المرحلة الثانية

(الحكم غير المباشر ونظرية الادارة الاهلية)

قبل نهاية العشرين سنة الاولى من الحكم البريطانى ازداد عدد السكان واتسعت رقعة البلاد فكان لابد للحكومة من ان تبدل النظام الادارى بحيث يتفق ويلائم الظروف الجديدة لاسيما وهنالك عوامل سياسية أخرى لم يتعرض لها اصحاب نظرية الحكم غير المباشر من البريطانيين ، كانت من ضمن الدوافع التى عجلت بهذا النظام . هذه العوامل السياسية الجديدة تتلخص فى بعث الحركات التحريرية فى اسيا وافريقيا ونمو الشعور الوطنى فى البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة مما جعل الحكام الاجانب يقومون ببعض التنازلات السياسية لدرء خطر الشعور المضاد نحوهم وهذا هو العامل الرئيسى تقريبا الذى حدا بالحكام البريطانيين ان يسلكوا نفس الطريق ويفرضوا على البلاد سياسة الحكم غير المباشر خصوصا بعد الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وحركة الضباط السودانيين فى ١٩٢٤ وهناك من التبريرات الاخرى التى جاءت فى تقرير المستر ملنر الذى وضعه سنة١٩٢١ عن السودان يقول التقرير المشار اليه :

« ان ادارة الاجزاء المختلفة من السودان يجب ان تترك بقدر الامكان فى ايادى السلطات الاهلية اينما يوجدوا تحت اشراف ورقابة البريطانيين فنظام اللامركزية وتوظيف الادارة الاهلية يمكنهم من القيام بالاعمال الادارية البسيطة فى القطر فى وضعه الراهن وسيقلل هذا الوضع الجديد من النفقات ويرفع من مستوى الخدمات »

وهذه تعتبر اول محاولة للاستفادة من الوضع القبلى يقوم بها البريطانيون لتنظيم الادارة الاهلية فى السودان .

نبذة تاريخية عن الحكم غير المباشر والادارة الاهلية

بدأ البريطانيون تجربة هذه السياسة فى نيجريا الشمالية فى مطلع هذا القرن على يدى رائدها (Fredrick Lugard) فقد وجد فى ذلك القطر مجتمعا قام فيه بتجربته هـذه وكان يوضح من ذلك ان نيجـريا لا تتحمل جلب موظفين بريطنيين من الخارج وراى ان يهتدى بالولايات الهندية ولاول مرة يعطى الافريقيون الفرصة ليديروا مؤسساتهم بانفسهم فبذل اللورد لوجارد ومن معه من البريطانيين الاكفاء جهدهم لنجاح هذه التجربة ما بين ١٩٠٣ و ١٩٢٣ وبارشاد السكان البريطانيين استطاع زعماء العشائر ان يكونوا نظام الادارة الاهلية ويباشروا سلطاتهم ومن ثم نقل هذا النظام المستر (Donald Cameron) فى سنة ١٩٢٥ وطبقه على ولاية تنجانيقا تحت الانتداب ويؤكد دعاة هذا المذهب ان الغرض منه هو منح الافريقيين نظام حكومة محلية فعالة وهى محاولة لقيام ادارة مدنية بدلا من النظام الابوى الذى يقوم به زعماء العشائر ونجاح هذه التجـربة وفشلها كما يقول دعاتها يجب ان يقاس بالوضع الذى سبقه وعلى اية حال فانهم يرونها وسيلة لتفادى ما يسمى (Westernization) اى فرض المدنية الغربية على هذه المجتمعات ولكن هناك من الافريقيين من يشك فى نوايا هذه السياسة ويرى انها استعمارية الغرض منها تقطيع اوصال القطر الافـريقى •

وبعض الاسئلة الى الان عالق ولم يجب عليها انصار هذه السياسة :

أولا : هل ادى نظام الحكم غير المباشر الى تقوية روابط المجتمع الافـريقى ؟

ثانيا : هل قضى هذا النظام على التأخر فى افريقيا

ثالثا : هل حسن حياة الفرد الاجتماعية واكسبه شخصة مستقلة تحت ظل الحرية والمعرفة ؟

وجد البريطانيون فى السودان تربة صالحة لتطبيق سياسة الحكم غير المباشر وتنظيم الادارة الاهلية وذلك لان المجتمع السودانى يشبه الى حد الوضع فى نيجريا وزعماء العشائر عندنا يتفق وضعهم مع الامراء فى نيجريا خصوصا المسلمين منهم الذين يمارسون الشريعة الاسلامية ويطبقون مبدأ الزكاة على نظام الضرائب ولذا وجد البريطانيون سهولة فى تطبيق هذا النظام على الوضع القبلى فى السودان •

تخويل السلطات

نتيجة لهذا الوضع فقد منح زعماء العشائر والمشائخ والنظار سلطات قضائية وادارية ومالية مختلفة ومتنوعة حسب الظروف والاوضاع المتباينة ولكن ليس معنى ذلك ان تتنازل الحكومة المركزية من سلطاتها الاساسية فى الحكم والتى يجب ان تبقى غير متنازع عليها ولكن الغرض من تخويل السلطات الى الادارة الاهلية ان تقوم الاخيرة بالاعمال البسيطة دون تدخل من الحكومة المركزية مع تطوير العادات القبلية والاستفادة من الصالح منها وليس معنى ذلك ايضا ان تخلق من الادارة الاهلية بروقراطية اخرى حتى يصبح زعيم القبيلة أو الشيخ موظفا حكوميا وبذلك ينتفى الغرض من تكوين الادارة الاهلية ويفقد رئيس القبيلة صفته القبلية التى جعلته اهلا للقيادة •

كذلك لا يجب ان تلقى على موظفى الادارة الاهلية مسئوليات ادارية كبيرة لانها تعوقهم من القيام بمهام القبيلة كما تعرقل سير الادارة الاهلية •

ولا يوصى ايضا بتطبيق القوانين واللوائح والرسميات بحذافيرها على موظفى الادارة الاهلية من نظار وعمد ومشائخ لان هذا ربما يذهب بخصائصها ويضر بالنظام القبلى •

وليس من المرغوب فيه ان تجمع القبائل وتدمج وتفرق بقوة القانون اذ ان النظام القبلى يقوم بهذه العملية من تلقاء نفسه واى تغيير فى شكله يستحسن ان يترك لعامل الزمن وحسب مقتضيات التطور الطبيعى ويرى دعاة هذا النظام ان العدالة فى المحاكم الاهلية لا تأتى عن طريق اللوائح والقوانين ولكن بسمعة المحكمة الحسنة وجذب الناس اليها وتحت مراقبة مفتش المركز ٠

من ضمن اعمال الادارة الاهلية صيانة الامن وان المسئولية الجنائية لست فردية بل هى مسئولية جماعية تتضامن فيها القبيلة ٠

تقريبا هذه هى الاهداف الرئيسية التى وضعها البريطانيون لتنظيم الادارة الاهلية ولهذا السبب نفسه اهتمت الادارة البريطانية بالحفاظ على النظام القبلى وبالتمسك بزعماء العشائر ورؤساء القبائل واهمال المتعلمين لان التعليم يضعف النظام القبلى ويخلق وعيا اجتماعيا يضر بمصالح الاجانب ويهدم ركنا هاما من سياستهم التى وضعوها لادارة البلاد ولذا يكون وضع المتعلم اساسا متناقضا مع سياسة الحاكم البريطانى الا بالقدر الذى يستفيد منه الاخير فى تسيير عجلة الحكومة ٠

وظيفة الادارة الاهلية وسلطاتها

بعد ان ذكرنا الاهداف من الادارة الاهلية نأتى لنوضح وظيفة الادارة الاهلية وسلطاتها :ـ

قلنا ان المستر « ملنر » وضع تقريرا فى سنة ١٩٢١ يوضح فيه اغراض الادارة الاهلية وملاءمتها للاوضاع السودانية وفى سنة ١٩٢٢ وضعت حكومة السودان مذكرة اخذت فيها برأى المستر « ملنر » ولذا قسمت الادارة الاهلية لنوعين ٠

١) رؤساء العشائر

٢) موظفو الادارة الاهلية

واتخذت خطوات ايضا لتنظيم سلطات رؤساء العشائر واعطاء الموظفين المحليين بعض المهام الادارية المباشرة لهذا السبب اصدر قانون سلطات المشائخ الرحل The Powers of Nomad Sheikhs Ordinance لتنظيم سلطاتهم السابقة التى كانوا يمارسوتها ولكن هذا القانون لم يتسع ليشمل كل مشائخ البدو •

تجربة دار مساليت

هنالك فرصة سنحت لتطبيق نظام الادارة الاهلية عندما تم الاتفاق البريطانى الفرنسى سنة ١٩١٩ الذى يقضى بانضمام دار مساليت (شبه المستقلة) الى مديرية دار فور وكانت دار مساليت تحتفظ بسلطاتها وتقاليدها المستقلة لهذا السبب عمدت الحكومة البريطانية الى ترك دار مساليت تحت الادارة الاهلية باشراف من المقيم العام البريطانى وتعتبر هذه تجربة للادارة الاهلية •

وفى نفس الوقت نشأت محاكم المشائخ وسط الشلك فى جنوب السودان وفى سنة ١٩٢٥ اجيز قانون محاكم القرى Village Courts) Ordinanec (فى المديريات الشمالية وتمتد سلطات هذه المحاكم الى غرامة قدرها ٢ جنيه وفى نهاية سنة ١٩٢٦ كان شكل الادارة الاهلية كالآتى :ـ

اولا : امتد قانون مشائخ الرحل وشمل المشائخ الذين لم تكن لهم سلطات تقليدية من قبل •

ثانيا : قل الصرف فى نفقات الادارة المركزية خصوصا بعد خروج الموظفين المصريين بعد حوادث سنة ١٩٢٤ •

وفى يناير ١٩٢٧ اوضح الحاكم السير (جون مفى) الغرض من مذكرة الحكومة سنة ١٩٢٢ فى خطابه :—

« ان توظيف الاهالى للعمل فى الادارة الاهلية ملاءم للموظفين الاجانب ومنح السلطات للقضاة المدنيين والمشائخ يتمشى مع المبدأ الاساسى فى تشييد الادارة الاهلية شريطة ان تقوم على اساس واقعى من من التقاليد والعرف المرعى والا انتفى الغرض الذى من اجله قامت • ويستحسن ان يمنح المشائخ مكافآت تتناسب مع مكانتهم الاجتماعية واحترامهم وبذا نوفر النفقات الكثيرة التى تصرف على الادارة ونخفض عدد نواب المآمير والكتبة والمحاسبين ونزيد من سلطات المشائخ القضائية والمدنية ونقوى الجهاز القبلى » وكان نتيجة لهذه السياسة التى وضعها الحاكم العام ان اصدر قانون المشائخ سنة ١٩٢٧ (Powers of Sheikh Nomad Ordinance) وحذفت منه كلمة (Nomad) ولاول مرة سمح لمشائخ المحاكم الكبيرة بسلطة السجن واصبحت سلطة المحكمة ١٠٠ جنيه غرامة وسنتين سجنا وللمحكمة الصغرى غرامة لا تزيد عن عشرين جنيها وبرهنت هذه التجربة انه لابد من وضع ميزانية لمنح رؤساء المحاكم والمشائخ مكافاة كافية تتمشى مع واجباتهم الجديدة كذلك تجدد القانون ١٩٢٨ ويقضى بتكوين محاكم برئاستها رئيس المحكمة ومعه اعضاء معينون وصدق لذلك بمبلغ ١٥٠٠٠ جنيه من الميزانية لهذا الغرض وفى نفس الوقت تعدلت اجراءات القانون الجنائى بحيث تكون (Benches of Native magistrates) فى تطبيق القانون الجنائى على القضايا البسيطة وكانت سلطاتهم فى بادى الامر محدودة بواحد شهر وغرامة قدرها خمس جنيهات ولكن ازدادت مؤخرا وكان الغرض من هذه القوانين المرنة ان ان تقوى وتشيد دعائم الادارة الاهلية وتقوى اواصر المجتمع القبلى من الناحية القانونية حسب الظروف المحلية •

ولكن هنالك بعض القضايا التى لا يحق لهم النظر فيها مثل قضايا القتل والقضايا ضد الدولة والنخاسة كذلك القضايا التى تشمل موظفى الحكومة او الاجانب ولهم ايضا سلطاتهم المدنية ما عدا الاراضى المسجلة

اما فى قضايا الشريعة الاسلامية مثل الزواج والطـلاق والـوراثة فليس لهم الحق فى النظر مثل هذه القضايا الا بعد موافقة الطرفين ولكن عندما تكون هنالك محكمة شرعية ومحكمة اهلية فى مدينة واحدة فـلا يحق للاخيرة النظر فى القضايا الشرعية •

ومن مرونة قانون سنة ١٩٢٨ انه مكن المحاكم الصـغيرة من ان يندمج بعضها البعض وتكون محكمة واحدة مثل دمج اجزاء قبائل الحمر تحت نظارة واحدة وهذا مما اعطى القبيلة قوة وتماسكا ورفع رأسـها بين القبائل الاخرى كذلك مثل الاندماج الذى وقع بين الجمع والحسانية فى النيل الابيض •

سلطات تنفيذية

ان تخويل السلطات القضائية ادى بالمثل الى تخويل السلطات التنفيذية للادارة الاهلية وقد ذكرنا فيما مضى ان عمل رؤساء القبـائل ينحصر فى بعض اجزاء القطر فى تقدير وجمع الضرائب وحفظ الامن ولكن منـح السلطات القضائية وانشاء المحاكم يتطلب زيادة فى الموظفين مثـل نائب رئيس المحكمة والخفراء للامن واحضـار الشهود وكـذلك قـامت الادارة الاهلية بالاشراف على الاسواق والزراعة واعمال البيطرة ونتيجة لذلك خفض عدد موظفى الادارة المركزية وفى غرب كردفان امكن الغـاء بعض المراكز والموظفون الذين بها استغنى عن خدماتكم •

الناحية المالية

وقد وضعت ميزانيات للادارة الاهلية كمافى دار مساليت والشكرية ولكن ليس لهم سلطات مالية كبيرة غير سلطة الصرف والاستلام وتوزيع مواهى الادارة وتشرف الادارة المركزية على هذه الميزانية من ناحية المراجعة والحسابات وقد اثرت ازمة سنة ١٩٣١ الاقتصادية على ميزانية الشكرية وقللت منها باضافة الفائض لميزانية الحكومة المركزية .

وبعض الادارات الاهلية منحت مسئوليات مالية مثل جمع وتقدير ضريبة القطعان والعشور وتدفع الحكومة المركزية المواهى والمكافآت للادارة الاهلية .

ولهذا السبب كان لابد من ان يتطور التشريع حتى يشمل المستلزمات الجديدة وقد اصدر فى سنة ١٩٣١ قانون محاكم المشائخ (Chief Courts Ordinance) لقبائل الجنوب . وفى الشمال وضع قانون المحاكم الاهلية (Native Courts Ordjnance) وهذ التشريع منح المحاكم الكبرى سلطات غير محدودة للسجن أو الغرامة كما وضع لكل محكمة امر تأسيس يوضح حدودها وصلاحياتها ولها أيضا لوائحها الخاصة بها وهذه اللوائح واوامر التأسيس مرنة وتتغير حسب الظروف المحلية وفى بعض الاماكن يمكن ان تباشر المحكمة الاهلية سلطاتها مع وجود المحكمة الشرعية فى نفس المدينة فى قضايا الاشخاص الواقعة تحت سلطتها .

الحكومة المحلية

وفى سنة ١٩٣٧ بدأت الحكومة فى وضع التشريعات التى يتم بموجبها انشاء الحكومة المحلية ورغم ان نظام الحكومة المحلية قد قام فى السودان على اساس الادارة الاهلية الا انه فى الحقيقة يختلف فى اشكاله ونظرياته عنها ولذا يعتبر معالجته فى هذا المجال خارجه نطاق البحث .

نظام الضرائب

قلنا ان سياسة الحكم البريطانى نحو القبائل كانت تهـــدف الى فرض الضرائب وكانت ترسم لتحقيق ذلك الغرض أنماط مختلفة مـــن النظم الادارية ـ وقد استفادت السياسة البريطانية الى حد كبـــير من الاخطاء التى ارتكبها الحكام الاتراك فى فرض الضرائب مما جلب عليهم سخط الناس وكراهيتهم وذلك لعدم معرفتهم باحوال القطـــر وجهلهم بنظام الضرائب الذى يتكافأ مع طاقات المواطنين ومقدرتهم •

فعندما كان غردون بالسودان فى فبراير سنة ١٨٨٤ جمع كل الدفاتر التى تخص الضرائب واحرقها مما يدل على سوء الطـريقة التى كانت متبعة ابان العهد التركى فى فرض الضرائب وتحصيلها •

ولكن فى فترة المهدية اثناء حكم الخليفة عبد الله بدأ نظام الضرائب يتحسن بشكل ملحوظ فوضعت ضريبة العشور على المحصول وضريبة الزكاة على الحيوانات والمواشى والممتلكات والمال كما عمل نظام ايجار الاراضى •

وفى بداية الحكم الثنائى اهتمت الحكومة اهتماما بالغا بالضرائب وروعى فى ذلك حالة السكان والاوضاع الاجتماعية والمحلية لهذا السبب كانت الضرائب منخفضة اذا ما قورنت بالوضع فى زمن الحكم التركى ولم يعهدوا الى تطبيق النظم الغربية فى نظام الضرائب وقد اعتمدوا على نظام الضرائب المفروض فى عهد المهدية وقد لاحظوا ان تحصيل الضرائب فى فترة المهدية كان يتصف بالقسوة فحاولوا ان يتفادوا ذلك ما امكـــن وعلى العموم فقد استفادوا فى فرض الضرائب من النظام المطبق فى البلاد المسلمة والذى يناسب احوال القطر •

وضعت فى بادىء الامر ضريبة القطعان والنخيل والاطيان والعشور والجزية وكانت تعدل من وقت لاخر حسب الظروف المحلـية وقد اثبتت صلاحيتها فى نظرهم واعتبرت من ضمن الضرائب المباشرة فى السودان •

الضرائب المباشرة :

١ ـــ ضريبة الاطيان

(قانون ضريبة الاطيان والنخيل لسنة ١٩٢٥) وقد فرضت هـــذه الضريبة مباشرة بعد الاحتلال على الاراضى الزراعيـــة غـــير التى تروى بالامطار وكانت فى بادىء الامر محصورة على مديرية دنقلا (سابقا) ثم عمت اخيرا فى بقية المديريات والان تطبق بطريقتين :

(أ) ضريبة على قيمة انتاجية الارض دون اعتبار للمحصـــول المستخرج وهذه تتطلب خرط صحيحة وتسجيل لملكيات الاراضى وبعد ذلك تقدر الضريبة على عـــدد الافـــدنة ويوضح القانون فئات معينة للفدان .

(ب) اما الطريقة الثانية فهى مماثلة لضريبة العشور بتقـــدير القيمة الحقيقية للمحصول واعتبار الضريبة نسبة معينة من هذا المحصول وتقل هذه النسبة كلما ازدادت المصروفات لكل محصول .

فالطريقة الثانية اصبح معمولا بها . فضريبة الاطيان فى الســـودان صارت تتطور الى ضريبة محصول وتقدر بقيمة مئوية محلية .

٢ ـــ ضريبة النخيل

(قانون الاراضى والنخيل لسنة ١٩٢٥) وهى تطبق فقط فى المديرية الشمالية وتفرض فئة الضريبة على النخيل الذكر عندما ينفتح الزهر وفى حالة الاناث عندما تحمل الثمرة .

ولكن فى الواقع تقدر القيمة على ١٠٪ من قيمة المحصول وتكون لجنة تقدير لذلك لتقوم بهذه العملية ففى فترات من السنين تقدر بنحـــو

خمس سنوات وعادة يكون التحصيل فى الربع الاخير من السنة عنـــدما يكون المحصول فى السوق •

٣ ـــ العشـــور

(قانون ضرائب الاراضى المطرية لســـــنة ١٩٢٤) وتفرض على المحصول المزروع فى الاراضى المطرية أو التى ترويها الانهـــار والتى لا تفرض عليها ضرائب أخرى أو حكر وضريبة العشور وضعت على نســـق الذكاة وتقدر بعشر المحصول حسب سعر الاردب والقيمة التى يضـــعها وزير المالية باستشارة المديريين مع الاعتبار لســـعر الاردب الجـــارى فى الاسواق المحلية فى كل فترة ولكل نوع من المحصول ويختلف تقـــديرها باختلاف المديريات والمراكز وزيادة على اسعار الاسواق المحلـــية يعطى الاعتبار لعدد السكان وسهولة المواصلات والاحوال المحلية •

ومما هو جدير بالذكر فان اللجان المعينة لهذا الغرض تجد مشـــقة فى تقدير المحصو ل مما يستدعى التنقل من مكان لاخـــــر والبحث عن المحاصيل الناضجة وفوق ذلك يسجلون الارقام وقيمة المحصول واسماء المزارعين وتحصل القيمة نقدا ولكن يمكن للمدير مع موافقة وزير المالية ان يفرض تحصيل الضريبة على المحصول نفســـــه وذلك اذا استدعى الحال فى منطقة خاصة أو فى المديرية بأكملها لغرض المصلحة العامة •

ونجد ان الدخل من ضريبة العشور غـــير ثابت وذلك لاختـــلاف الامطار واحوال الطقس •

وفى مدة السبع سنوات بين سنة ١٩٣٦ الى ١٩٤٢ كان متوسط الدخل السنوى من ضريبة الاطيان والنخيل والعشور تقدر بمبلغ = ٩٢/٢١٩

٢٠٫٠٨٤ من ضريبة الاطيـان
٢١٫٢٩٠ من ضريبة النخيـل
٥٠٫٨٤٥ من العشـور

المـديرية	الا طيان	النخيل	العشور
	جنيـه	جنيـه	جنيـه
النيل الأ زرق	٤/٩٨٠	—	٣٣/٦٧٤
دارفور	—	—	—
خط الاستواء	—	—	—
كسـلا	٣٧	—	١٣/٧٩٦
الخرطوم	٢/٤٣٥	—	١٤٩
كر دفان	١٣٢	—	٤٢٧
الشمالية	١٢/٥٠٠	٢١/٢٩٠	٤٢٧
المجموع	٢٠/٠٨٤	٢١/٢٩٠	٥٠/٨٤٥

(هذا الجدول يوضح متوسط هذه الضرائب فى المديريات فى هذه السنين الاحصائية من كتاب الزراعة فى السودان للمستر « توتل »)

٤ — ضريبة الدقنيـة

(قانون ضريبة الدقنية لسنة ١٩٢٥) هـذه الضريبة موضـوعة للمديريات الجنوبية وبعض اجزاء السودان وفرضت بدلا عـن ضرائب المحاصيل والحيوانات للحالة البدائية التى يعيش عليها النـاس هنالك . ولكن وجدت هذه الضريبة نقدا شديدا من المواطنين فى عهـد الحكم الوطنى باعتبارها مذلة للكرامة الانسانية ولا تاخذ فى الاعتبار دخـل الفرد والتزاماته العائلية .

الجـزية :

(قانون الجزية لسنة ١٩٢٥)

ان الغرض من هذه الجزية كما يقول المشرع هى بث روح المسئولية بين زعماء العشائر فى المناطق القبلية فهى فى بعض الاحيان تشمل العشور والقطعان والدقنية فى كردفان وبعض منـاطق من مـديرية كسـلا يهتم الاداريون بعمل الكشوفات والعيب الواضح فىهذه الضريبة ان المسئولين يجدون صعوبة بالغة فى انصاف احد افراد القبائل اذا ما اشتكى ضـد الجزية المفروضة عليه دفعها لانه ليس هنالك طريقة واضحة او تقـدير معين يقسم على الافراد وانما يضعها الناظر او العمدة حسب الظـروف القبلية وقد يقع عبئها الثقيل على الأفراد العاديين ولا يدفع النظارو العمد الا اليسير من ذلك ولذا يستحسن ان تستبدل بضريبة القطعـان لانه يسهل تكشيفها وتوزيعها على المجمـوعة سنويا لمعـرفة المقـدرة الضريبية فى المنطقة وبما ان الجزية والدقنية لا تفـرض على الارض او المحصول لذلك لاتعتبرعند تقدير الضرائب المباشر فىالسودان ويستحسن ان تدمج الضرائب المباشرة مثل العشور والقطعان والاطيان والنخيـل والجزية فى قانون واحد يشملها جميعا ٠

منذ الاحتلال كان غرض الاداريين البريطانيين ان تكـون نسـبة الضرائب المباشرة منخفضة بالمقارنة مع العهود السابقة ٠

الاهداف الاجتماعية من الضرائب المباشرة

كان مجموع الدخل بين ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢ من ضرائب الاطيـان والعشور والخراج يساوى ٤ر١٪ من مقدار الدخل فى ميزانية حكـومة السودان وهذه الضرائب المباشرة لعبت دورا هاما فى تقـوية الادارة الاهلية بعدتخويل السلطات المالية ووضع ميزانياتمستقلة للادارة الاهلية

وهنالك الضرائب غير المباشرة التى تحصل فى مناطق قبلية كالعوائد الجليلة التى تجبى على الصمغ والتبغ المصدق بزراعته والدوم والخشب والفحم وحطب الحريق واهمها الصمغ من ناحية الدخل ولتفصيل هـذه هذه الضريبة ارجو الرجوع لقانون العوائد الجليلة لسنة١٩٣٩ والتعديلات التى طرأت عليه سنة ١٩٥٩ .

العوامل الاقتصادية

نخلص من كل ذلك ان نظام الضرائب يختلف كما ونوعا حسب الاقتصاد السائد ففى المناطق الزراعية يرتبط الانتاج الزراعى بالارض وتتغلب اسعار المحاصيل فيصبح من السهل ان تفرض الضريبة على الارض نفسها مثل الضريبة التى تقدر على الفدان والضريبة على اساس قيمة الايجار السنوى ونرى فى نفس الوقت ان تحصيل هـذه الضرائب يختلف باختلاف مواعيد جبى المحاصيل وفى بعض الاحيان يصعب تقدير المحصول كما هى الحال فى ضريبة العشور .

لان المزارعين يستهلكون جزءا من انتاجهم بصفة مباشرة ثم ان المزارعين لا يعرفون طريقة مسك الدفاتر كذلك نلاحظ ان المزارع لا يتهرب من ضريبة الارض لانه مرتبط بها ولا يستطيع ان يفارقها وكذلك لان ترك الارض دون زراعة يؤثر على قيمتها الانتاجية .

كما نلاحظ ان موظفى الادارة المركزية والادارة الاهلية الذين يقومون بتحصيل هذه العوائد ليست لهم الكفاءة التى تمكن المسئولين من فرض ضرائب على الارباح الفعلية من الاستغلال الزراعى كما يحدث فى انجلترا مثلا واخيرا فان المجتمع الزراعى لا تتعدد فيه مصادر الدخل ومما يلاحظ ان المجتمع الزراعى اقل قدرة على دفع الضرائب من المجتمع القائم على الصناعة او التجارة فمثل هذه المجتمعات تعتمد على الضرائب غير المباشرة .

وبعد هذا العرض نريد ان نبدى نظرة اجمالية للحكم البريطـانى كما وصفه المفكر العظيم المستر «نهرو» الذى خبر هذا النظام وبلا مـره وجدير بالذكر ان الادارة التى نحن بصدد الحديث عنهاقد وجدت بذورها الاولى فى ولايات الهند ثم نقلت الى افريقيا .

يقول المستر نهرو فى كتابه « حياة نهرو (An Autobiography) والذى احتفلت به حينـذاك كبريات الصحف البريطانية . صفحة ٤٣٥ تحت عنوان « سجل الحكم البريطانى » :

« ان المفهوم البريطانى لحكم الهند هو خلق دولة بوليسية فالمالية تخصص للمصروفات الحربية وتعزيز البوليس وصيانة الادارة المدنية اما حاجيات المواطنين الاقتصادية والثقافية فلا تجد من يهتم بها ويضـحى بها فى سبيل المصالح البريطانية ولا يستفيد من كل ذلك غير حفنة ضئيلة من الناس »

(اما المفهوم المتطور للمالية الذى يهدف لتعميم التعليم المجـان وتحسين الخدمات الصحية والاهتمام بالفقراء والضعفاء وضمانات العمال ضد الامراض والشيخوخة والعطالة كما فى الاقطار الاخرى ، لا تحققهـا الحكومة لان نظام الضرائب متخلف ويقع عبئها على اصحاب الدخـول الصغيرة »

«ان الظاهرة الهامة فى الادارة البريطانية هى تركيزهم على كل شىء يقوى من قبضتهم السياسيةوالاقتصادية على القطر اما التحسينات الاخرى فتأتى عرضا . فقد اتوا بادارة قوية وبوليس كفء يمكنهم ان يعتزوا بهما ولكن لا يستطيع اهل الهند ان يفخروا بذلك » .

«نعم ان وحدة القطر جميلة ولكن الوحدة فى العبودية امر لايمكن

التباهي به • فمتانة الادارة الاتوقراطية ربما تكون عبئا على الناس وكفاءة البوليس رغم انها مفيدة فى نواحي كثيرة ولكنها فى معظم الاحيان ربما توجه ضد الناس الذين كان يجب ان تحميهم وحديثا قال برتراند رسل فى هذا المعنى مقارنا المدنية الحديثة بمدنية الاغريق القديمة « ان تفوق مدنية الاغريق ترجع لعجز البوليس الاغريقى وعدم كفاءته التى افسحت المجال لعدد كبير من الناس المهذبين الافاضل ليفلتوا من قبضته » •

ثم ينتقل المستر نهرو فى نقده لسياسة الحكم البريطانى فى الهند ويتحدث عن الامن الذى يعتز بصيانته الاداريون البريطانيون •

«ان الادارة البريطانيةقد جلبت لنا الامن والهند فعلا فى حاجة الى الامن خصوصا بعد المتاعب والمشاكل التى تبعت امبراطورية المغول فالامن سلعة غالية وضرورية لاى تقدم ولذلك استبشرنا به ولكن قد كلفنا ثمنا غاليا ـ فمثل هذا الامن قد نجده احيانا فى صمت القبور أو داخل القفص او السجن او قد يكون الامن فى استكانة العاجزين الذين لايقوون على تغيير ما بانفسهم » •

« فالامن الذى يصونه الغاصب الاجنبى قل ان يجلب معه الطمأنينة والراحة المنشودة • ان وحدة القطر التى يعتز بها البريطانيون قد جاءت تلقائيا وتتيجة لتقدم الامبراطورية ولكن فى السنوات الاخيرة عندما التقت هذه الوحدة بالامانى القومية والشعور الوطنى فقد شاهدنا باعيننا المحاولات المحمومة لتمزيق وحدة القطر وتشتيت شمله وتشجيع الطائفية ووضع العراقيل الهائلة امام تقدمنا » •

ثم بعد ذلك يعقب المستر نهرو على الذين يدعون ان الحكم البريطانى خدم الهند وطورها فيقول :

« نعم هنالك تقدم من النواحى الاقتصادية ولكنه كان من الممكن ان يحدث مثل هذا التقدم دون الحكم البريطانى لاسيما ونحن فى مطلع

«الثورة الصناعية والتقدم العلمى فقد اصابت بلاد كثيرة تقدما باهرا فقد تم فى الهند فى فترة الحكم البريطانى بناء السكك الحديدية وامتدت خطوط التليفونات واللاسلكى ونحن نشكرهم لانهم ادخلوا ثمار الثورة الصناعية فتحسين التجارة ونقل المحاصيل جلب حياة جديدة وثروة لملايين من المواطنين ولكن هذا التقدم وضع لاغراض اخرى هى تقوية قبضة الامبراطورية وخلق سوق للبضائع الانجليزية . »

القواعد النظرية للادارة البريطانية

تحدثنا عن نوع الادارة البريطانية التى كانت سائدة فى الهنـــد وتقلت الى السودان وغيره من البلاد المستعمرة الاخـرى ورغم انهـا اتفقت فى جميع البلدان علىالاهداف الا انها اختلفت فى النظم والاشكال حسب الظروف المحلية والمراحل التى يمر بها كل قطر على حدة •

أولا : نخلص من كل ذلك ان الاساس النظرى للادارة البريطـانية هى التجربة فى المستعمرات المختلفة وتطبيقها فى الاوضاع المتشابه فمثـلا نجد ان نظرية الحكم غير المباشر والادارة الاهلية بدأت فى ولايات الهند تم انتقلت الى افريقيا واخيرا طبقت فى السودان مع مراعاة الظـروف المحلـية •

ثانيا : تقوم الادارة البريطانية على الاستفادة من الاوضاع القائمة فى الاقطار المستعمرة وتطوير ما يناسب سياستهم الادارية كاستفادتهم من النظام القبلى فى السودان والحفاظ على التقاليد والعادات التى تصـون هذا النظام لتقوية الحكم البريطانى وتثبيته وعندما يطبقون نظام الحكم المحلية الاوربى يراعون فى ذلك تقوية الوضع القبلى وعلى هذا قامنظام الحكومة المحلية على اساسالادارة الاهلية وهم فى نفس الوقت يتفادون فرض النظريات السياسية الغربية التى تتعارض مع النظام المحلى القائم

ثالثا : يستفيدون من اخطاء الحكام السابقين • مثلا نجـد انهـم استفادوا من اخطاء الاتراك فى ادارة البلاد كما اسسوا نظـام الضرائب واستفادوا من الطريقة التى كانت متبعة فى زمن المهدية وكانت نسـبة هذه الضرائب بسيطة اذا ماقورنت بالوضع فى زمـن الاتراك ـ كذلك تفادوا المعاملة القاسية التى كانت تجبى بها الضرائب فى المـاضى وكانوا يهدفون من نظام الضريبة الى تقوية النظام القبلى وتثبيته •

رابعا : ان الادارة البريطانية تقوم على سياسة ثابتة مدروسة ومجربة لها اهدافها الواضحة واساليبها الواقعية ـ ونستطيع ان نقول انها ثمار تطور الرأسمالية الغربية ولذا جاءت متكاملة وتشكل النظام الاستعمارى الاخذ الان فى الزوال ومن خصائص هذه الادارة انها لا تعتمد على الاشخاص كما رأينا ذلك فى عهد الحكم التركى فمتى ماكان الوالى قويا استطاع ان ينفرد بالحكم ويشق عصا الطاعة ففى ذلك العهد تتأثر السياسة بالنزوات الفردية والنفوذ الشخصى .

اما فى نظام الادارة البريطانية فلا نجد اثرا للفرد فالادارى البريطانى مهماكان قويا ومفكرا ممتازا فلايستطيع ان يتخطى فى تصرفاته عن الاهداف المرسومة التى جاء لتحقيقها وفى هذ المعنى تقول مسز «بيرام» عن المستر (نيوبولد) فى صفحة ١٠ من المقدمة لكتاب (The Making of the Modern Sudan)
(ان الحكم على نيوبولد الادارى يتطلب معرفة بالوضع الذى يعمل فيه وهو النظام الاستعمارى الحديث وليس غريبا لرجل مثل نيوبولد يمتاز بعقل ثاقب ان يجد نفسه ضابطا فى خدمة مهما سميت فاساسها استعمارى) وتقول الكتابة انها لا تستعمل كلمة استعمار المتعارفة عند نقاد السياسة البريطانية من المصريين والسودانيين ولا يختلف اثنان فى مقدرة نيولون وكفاءته .

خامسا : ننتقل الان الى الحديث عن المؤلفات التىوضعها الاداريون من البريطانيين . لاشك ان الاداريين الانجليز فى السودان قد دونوا قدرا وافرا من تريخنا المعاصر فى كتبهم ومؤلفاتهم كما قاموا بمجهود عظيم فى تسجيل ودراسة النظام القبلى فى المجلة الرائعة « السودان فى مذكرات ومدونات » نرجو ان تبقى هذه الذخيرة ولا تمتد اليها يد الزمن بالضياع والتبديد ولكن لابد من اعادة النظر فى هذه المؤلفات وكتابتها من جديد

فالمطلع على هذه المؤلفات يرى انها نهـــدف الى تدعيم الحـــكم البريطانى وتقويته وعندما يكتبون عن القبائل السودانية فلا يستهدفون فى كتاباتهم مصلحة هذه القبائل فى حياة الاستقرار ورفاهية الافـــراد ولكن ما يقدمونه من خدمات فى هذه الناحية تاتى عرضـــا وشريطة ان لا تتعارض مع مصالحهم العليا •

سادسا : نجد انهم قد تأثروا بكتاباتهم بالحـــركة الرومانتيكية فى الادب الانجليزى فنراهم يمجدون العرى فى الجنوب متأثرين بنظـــرية روسو رائد هذه الحركة التى تدعو الى نبذ المدنية والرجوع الى الطبيعة فيستغلون بذلك مثل هذه النزعات الادبية ليســـتبقوا على التأخـــر فى الجنوب ويخدموا مصالحهم الاستعمارية •

كذلك نشاهد اثر حبهم للطبيعة باديا فى كتاباتهم عندما يصـــفون حياة القبيلة كوصف «دنكان» لقبائل الحمر ووصف «نيوبولد» الرائع للصحراء ، هذا الوصف الدقيق والتصوير النابض بالحياة يشـــهد على على مقدرة «نيوبولد» الفائقة فى استلهام مظاهر الطبيعة ويذكرنا بوصف «ديكنز» للعاصفة فى كتابة (دافيد كوبر فيلد) ونلاحظ فى كتاباتهم ايضـ روح المغامرة فنراهم يجوبون الفيافى والقفار ويضربون فى بطون الارض فى رحلاتهم المتعددة وسط القبائل المشتتة يجتمعون فيهـــا بالافـــراد والجماعات ويتعرفون فيها على حياتهم فالمغامرة هذه التى نلمســـها فى حياتهم وكتاباتهم مستمدة من روح العصر الـــذى صـــورها لنا ابرع تصوير الكاتب الانجليزى الذائع الصيت ديفو فى كتابه (روبنســـون كـــروزو) • ويساعدهم على القيام بالرحلات الطويلة «والمامـــوريات» المتباعدة تكوينهم الجسمانى وحبهم للرياضة • وكانوا يفضلون المتازين

فى الرياضة البدنية من خريجى الجامعات البريطانية لملء وظائف الادارة فى السودان ، يذكر ذلك المستر « جاكسون » فى كتابه Sudan Days and Ways صفحة ١٥ منه .

ملحوظة : « الاداريون من السودانين يقللون من القيام بالماموريات وربما يعزى سبب ذلك لارتباطاتهم العائلية »

هذه تقريبا ملاحظات سريعة عن سياسة الحكم البريطانى ازاء الوضع القبلى اردت ان ابديها فى هذه العجالة .

من آثار النظام القبلى على الحياة السودانية

لايدرك الفرد القبلى مسئوليته نحو المجتمع فهو مسئول امام اسرته وعشيرته اما المجتمع الذى يعيش فيه فهو غريب عليه ولا يربطه به غير سلطة الدولة التى يرى انه مجبر على طاعتها واظهار الولاء لها وذلك نتيجة طبيعية لفقدان الوعى الاجتماعى داخل النظام القبلى فهو لا يشارك بنى وطنه ولا يتجاوب معهم ولا يحس بالمسئولية التضامنية التى تربطهم جميعا برباط الولاء والاحترام للوطن لا عن رهبة ولكن عن ادراك سليم لمهامهم وواجباتهم الكبرى •

وللأسف فاننا نجد اليوم ان هذا الاحساس القبلى العميق يؤثر حتى على المتعلمين من افراد القبائل السودانية ـ وعلى ما اعتقد فالتعليم وحده لا يكفى للتخلص من مضار الاثار القبلية على الافراد خصوصا الذى تربى داخل القبيلة •

فالفرد منذ نعومة اظفاره يجد نفسه محاطا بسياج حديدى من التقاليد والعادات التى تتسرب الى اعماقه وتكيف سلوكه واخلاقه فعندما يبلغ مدارج التعليم العليا ويتفاعل مع مجتمعه الجديد ورغم التغيير الذى يطرأ على حياته يجد نفسه دون وعى منه يعبر عن تصرفات قبلية تتعارض مع الهدف الاساسى للتعليم ومقتضيات الحياة الجديدة •

نلاحظ هذا عندما يعود بعض الافراد المتعلمين الى اوطانهم فى فترات العطلات المدرسية او الاجازات الحكومية تتغلب عليهم النزعة القبلية وهم بين عشيرتهم واهليتهم لان ينبذوا اثار المدنية والتحضر التى اكتسبوها ويعيشوا بين اهليهم فى هذه الفترة كافراد عاديين ومنهم من

يتخلى عن زيه وسلوكه الجديد ويعود لمباشرة حياة القبيلة ويمـــارس عادات القوم وتقاليدهم ٠

ويرجع السبب فى ذلك :

اولا : لانهم دون ادراك منهم لا يستطيعون ان يتخلوا عن التراث الحديدى والاثر النفسى الذى تركته فيهم حياة القبيلة ٠

ثانيا : لانهم يعتقدون ان التخلى عن مظــاهر التحضر يرفعهـم فى نظر عشيرتهم ويكسبهم عطفهم ولا يعرضهم لنقدهم ومجافاتهم ٠

وعندى ان هذا الفهم خاطىء وضار اذ ان المتعلم مفروض فيـه ان يكون قدوة لاهله ويشجعهم على تقبل المدنية ويبث فيهم اثارها من تعليم وعادات جديدة صالحة حتى يمهد بذلك لنشر مظـــاهر التحضر وسط المجتمع القبلى وليسهل مهمة المسئولين الذين يضعون برامج الاصـلاح مستهدفين ازالة التناقص الموجود اليوم بين البدو والحضر من اجل نهضة القطر وتطوره ٠ هذا فى رأى واجب المتعلم داخل المجتمع القبلى ٠

التعصب القبلى بين المتعلمين

وفوق كل ذلك نجد هنالك اثارا سيئة تتركها حياة القبيلة عنـــد بعض المتعلمين وللاسف فقد تفشت هذه الظـاهرة خصوصا بعـد فترة الحكم الوطنى فنجد اليوم بعض المتعلمـين يتعصـبون لابنـاء قبيلتهم ويعتقد الواحد منهم ان واجبه يقضى ان يفضـل افـراد عشـيرته على الاخرين من ابناء القطر خصوصا فى مجال التخـــديم والتوظيف دون اعتبار للكفاءة والخبرة ــ وعلى هذا الاساس قامت الدعوات فى الماضى فى انحاء القطر تنادى بتحقيق مطالب قبلية دون اعتبار للمصلحة القومية ٠

ولو كان الذين يتصدرون هذه الدعوات من غير المتعلمين لاستطعنا ان نلتمس لهم العذر وقلنا ربما دفعهم لذلك التعصب القبلى والنظـــرة

الضيقة ولكن للاسف نجد ان بعض المتعلمين من افراد القبائل هم الذين يتحمسون لهذه الدعوات ويعقدون لها المؤتمرات .

وابادر موضحا بانني لا اعارض مثل هذه المؤتمرات اذا كانت تدعو لتطوير المنطقة ونهضتها بل أويدها ولكنني اتخوف اذا كانت تهدف الى مطامع سياسية الغرض منها تمزيق وحدة الوطن وعرقلة نموه بتوجيه العداء نحو ابناء القطر واستبدالهم باخرين من ابناء القبيلة على اساس عنصرى وليس على اساس الكفاءة والنظرة العامة .

التعليم والاستنارة

اذن لماذا يتعلق بعض المتعلمين بمثل هذه العادات ؟

عندى ان هذا مرده الى الفرق بين التعليم والاستنارة . فالمتعلم غير المستنير يضع مصالح الجزء فوق الكل ويعتقد دون وعى منه ان مصلحة عشيرته وقبيلته فوق مصلحة الامة .

اما الاستنارة ففى رآيى تتطلب مستوى من الاخلاص والوعى والادراك السليم والنظرة الشاملة للحياة ـ فالفرد المستنير الواعى المخلص هو الذى يحمل هموم الانسانية جمعاء بغض النظر عن الخلافات المذهبية أو الدينية أو العنصرية ـ وللاسف فهذه النظرة لا يدركها من يعمل فقط لعشيرته وقبيلته مهما بلغ حدا من التعليم .

ولكن هنالك نوع من الناس اشد خطرا على المجتمع وهذا يتمثل فى الطبقة المستنيرة التى يعمل افرادها عن وعى وادراك لوضع مصالحهم الذاتية فوق المصلحة القومية ـ وهؤلاء هم الذين يستغلون دعوات الاصلاح الاجتماعية لتيفيذ اغراضهم ولتحقيق مصالح دنيا عاجلة .

قصدت من كل ذلك ان أوضح ظاهرة اجتماعية بدأت تستشرى فى مجتمعنا السودانى وان اشير الى علاقتها بالنظام القبلى ولست انوى التقليل من شأن دعوات الاصلاح ولا التثبيط من همم الرجال العاملين لها فى اخلاص وادراك تام .

(٢) الاســــرة

الاسرة هى الوحدة القبلية أو الاهل ويليها الجيل وهو مجمــوعة من الاسر الوثيقة الاتصال وهذه الاسرات المتماسكة تكون فرعا يطلق عليها اسم العشائر أو الحمائل «ان اريد بيان صلة الرحم» اما القبيلة فهى تضم كل هذه الاقسام فالعلاقات التى تربط افراد العشيرة ببعضـــهم البعض تكون محكمة وثيقة وقائمة على اسس شخصية بحتة ولا جرم ان الولاء والاخلاص للعشيرة يتولد منه العديد من العيوب التى تتصف بهـا اداة الحكم مثل المحسوبية والرشوة واستقلال النفوذ وهذا يتفشى فى المجتمع القبلى بشكل محسوس فاذا ما فاز احدهم بوظيفة حكومية فانه يعتقد ان عليه واجبا مقدسا نحو افراد عشيرته ينحصر فى تعيينهم فى عمل حكومى ظنا منهم بانهم يؤدون بعض ما عليهم من تبعات نحو ا لقارب والخــلان وهكذا يتطرق الفساد الى الادارة المحلية والمركزية .

وفى اعتقادنا ان الولاء لشيخ القبيلة او للاب اكبر عائق يحـــول دون انتقال افراد القبيلة الى مناطق اخرى ومهن مختلفة اذ ان مثل هــذا التصرف تعتبره القبيلة طيشا ونزقا وعقوقا واذا علمنـــا ان بعض شيوخ القبائل يطالبون رعاياهم بتقديم ما يلزم من فروض الولاء والطـــاعة كالخدمات الشخصية أو القتال من أجلهم استطعنا ان نفهم كيف تبـــدد الطاقات الانتاجية احيانا فى المجتمع القبلى .

ورابطة الاسرة وتماسك القبيلة تتطلب الاهتمام بالكثرة العــددية وهى مصدر قوة القبيلة وفيها بسط لنفوذها ان المفـــاخرة بالاعـــداد والانساب متاصلة ولا تفترق عن العقلية القبلية ونتيجة لذلك صار الفرد يميل الى الزواج المبكر والى انجاب الكثير من النسل دون قيد ويقول الدكتور سعد ماهر حمزه فى كتابه (التنمية الاقتصادية والجهود الاجتماعى) «ولزيادة السكان اثار اجتماعية واقتصادية معقدة ويكفينا هنا ان نوضـــح

ان معدل الزيادة فى السكان اذا كان يربو على معدل الزيادة فى الانتاج (زراعيا وصناعيا) فان النتيجة تكون حتما انخفاض فى مستويات المعيشة اثر انخفاض نصيب الفرد من الدخل العينى « واذا كنا لا ندافع عن السياسة المثالية فى تحديد النسل فاننا لا نستطيع ان نقر الاوضاع السائدة حاليا فى الدول المتخلفة الاسيوية الافريقية واى زيادة فى السكان يجب ان تقترن بزيادة اكبر فى معدل الانتاج القومى حتى تضمن عدم انهيار مستويات المعيشة بل ارتفاع تلك المستويات بشكل ملموس »

«وبمناسبة ذكر الاسرة وحجمها فى الدول المتخلفة نرى من المفيد ان نشير الى الاثار التى تنشأ عن ذلك فى مضمار الضرائب فاذا كانت الاسرة كبيرة العدد امكننا ان ننتظر ضعفا فى حصيلة ضرائب الدخل نظرا لارتفاع حد الاعفاء وعدم ارتفاع فئات التصاعد التبعية كما يمكننا ان ننظر انخفاضا فى حصيلةضرائب التركات نتيجة تفتيت الملكية بعد وفاة رب الاسرة »

(٣) الروح الحـــربية

ومن اثر رابطة الاسرة والولاء لها والحفاظ عليها تولدت الــروح الحربية وسط القبائل واصبحت صفة مستديمة للنظام القبلى فالمشاحنات والعداوات القديمة تكون كثيرة متكررة فيما بين القبائل لاسبـــاب مختلفة منها عادة الاخذ بالثأر فعلى الفرد ان يثأر لاقاربه حتى الدرجة الخامسة اذا تعرضوا للقتل فاشعارهم واغانيهم دموية ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه فهو هالك وتتيجة لذلك لا يعرف البــدوى التســامح والعفو الا من تأثر منهم بالدين الذى يدعو للاخاء والغفران واولئك نفر قليل ٠

والى جانب ذلك فالبدو الذين يعيشون على الكفاف يميلــون الى سد النقص فى حاجياتهم المعيشية عن طريق الاغارات التى يشنونها على القبائل المجاورة وكذلك القرى الزراعية فيسلبونها خيراتها من محصولات ومواشى ومتاجر وقد يفرضون عليها الاتاوات الباهظة ومن الواضح ان اضطراب الامن ليس من صالح التطور الاقتصادى ٠

نجد ان شيخ القبيلة فى عهد مملكة الفــونج يصرف ميزانيته مــن ثروته الشخصية من المزارع ودخله من تجارة الرقيق والمكوس والجمارك التى يجبونها من القوافل والاسواق ــ يصرفها على الحروبات مع القبائل الاخرا لتدعيم مملكته او يجرد الحملات للذين يرفضون دفع الاتاوة ٠

فالمجتمع القبلى مجتمع حربى فى تكوينه وحياته الاجتماعية ومـــا من قبيلة الا ولها حروبها مع جاراتها والتاريخ الذى يتلقاه الصغير مــن والديه هو وقائع القبيلة وايامها الحربية ومشاهير زعمائها وقـــوادها وكيف هزموا خصومهم وانتصروا عليهم ٠

دفعت الروح الحربية افراد القبائل الى تملك الرقيق فكان الشيخ

فى الماضى يعتمد فى حروبه زيادة على أولاده وبنى عمه على عبيـــدة وهم يبذلون انفسم فى سبيل سيدهم الذى يعتزون به •

فهذه الروح الحربية قطعت اوصال البلد لسبب الحروبات الكثيرة بين القبائل فى زمن مملكة الفونج فالســنين التى سبقت الفتــح المصرى كانت حقبة تفكك وانحــلال مما جعل مهمة اسماعيل باشا اسهل ممــا كان مقـــــدرا لهــا •

ولكن عندما تواجه القبيلة عدوا مشتركا فانهم يواجهونه صفا واحدا ويتناسون خلافاتهم الشخصية « انا واخى على ابن عمى وانا وابن عمى على الغريب » تماما كما وقف الشايقية وقفة رجل واحد ضد جحــــافل محمد على المحملة بالعتاد •

والى اليوم نجد ان الخلافات القبلية ترجع فى اصــلها الى هــذا التكوين الحربى ولهذا السبب كانت صيانة الامن من مهـــــام الادارى البريطانى • فوضعت المراكز فى المديريات المختلفة لتفى بهذا الغرض •

ولهذا فالغاء المراكز أو دمجها لابد من أن يســبقه فهم ودراســة للنظام القبلى وذلك لارتباط القبائل مع بعضها وتشابك مصالحها ممــا يستدعى مرونة وخبرة واسعة فى هذا المضمار •

(٤) العـداوة بين الحضر والبـدو

ادى ترابط الاسرة وتكوينها الى خلق العداوة بين اهل المدن والبدو فالفلاحون يخشون البدو ويضمرون لهم الكراهية والبغضاء نظـرا الى مايتعرضون له من اغارات او غزوات وجزية واتاوات وهذا الوضع يدعو المزارعين الى عدم المقامرة باموالهم فى انشاء البساتين والتوسع فى المبانى مخافة ان يضطروا الى التنازل من قراهم تخلصا من سطوة المغيرين وهؤلاء كثيرا ما لايخضعون لرقابة حكومية ويفلتون من ايدى العدالة فلا غرابة فى ذلك فالبدوى لا يجد ما يدعو الى احترام حقوق الغرباء وهو لا يعترف بالحقوق المتساوية الا لافراد قبيلته .

ولا جرم فالعداوة التقليدية بين الحضر والبدو تضع قيـدا عـلى النشاط الاقتصادى كما تعرقل قيام المدن والمعروف ان المدينة وهى منبع المدنية ومركز الرقى والمهد الذى يتربى فيه الوعى الاجتماعى والثقـافى والصحى بل ان المدينة والمراكز الحضرية والتجارية والصناعية عامة هى المعمل الذى ينضج فيه الوعى السياسى وتزدهر فيه روح القومية .

وكان شعور البغضاء بين أهل المدن والبـدو من التناقضـات التى استفاد منها الحكم الاجنبى فادخل فى روع أهـل البـدو ان المثقفـين (الافندية ــ كما كان يسميهم الحاكم الاجنبى) يضمرون لهم العداوة ــ فادى هذا الى شبه القطيعة بين المثقفين السودانيين واهل البدو من المشائخ ابان الحركة الوطنية فاضر بنمو الشعور الوطنى وتوحيد الصف .

ولكن عندما تسلم السودانيون مقاليدا لحكم وصارت البلاد لبنيها عمل المخلصون من ابناء هذه الامة الى اعادة الثقة بين مشايخ القبـائل والمثقفين السودانيين والان يعملون يدا واحدة لنهضة القطر ناسـين الخلافات التى كانت ناشبة فى الماضى .

(٥) القبيـــلة والدولة

ذكرنا ان الفرد داخل القبيلة لا يستقل بنفسه وانما يعمل لصـالح قبيلته فوعيه وعى جماعى ينحصر فى داخل الاطار القبلى ولهذا يكـون ولائه للقبيلة •

فالحياة القبلية هى عالمه الكبير (مصدر تفكيره ووحى الهـامه) فكلما يصدر من تصرفاته لا يخرج عن النظام القبلى اما الاشــخاص الاخرين فهم غرباء عليه ان لم يكونوا اعداء له وليس فى ذهن الـبدوى اى مفهوم للدولة ولا يستطيع ان يفهم معنى الوطن ولا يمكن ان يتظـر الافراد الذين خارج قبيلته كمواطنين لهم حقـوقهم المشروعـة فى تملك الارض وشرب الماء ورعى الماشية ويعتقد ان الارض التى يعيش عليهـا وما فيها من خيرات هى ملك لقبيلته يتوارثها الابناء عن الاباء ويدافعون عنها بكل مرتخص وغال •

ونلاحظ ان الاتفاقيات حول الارض وتقسيمها بين القبـائل كثيرا ما تكون جائرة وتتعارض مع حقوق الافراد الاساسية كمـــواطنين فى الدولة « اشير فى هذه المناسبة الى اتفاقية الارض المنعقـــدة بين قبيلة الهدندوة والرشـايدة سـنة ١٩٣٣ » والتى بموجبهـا يصـير تمـلك الارض مـن حـق الهـدندوة وحدهـم ولهـذا السـبب ينظـر الهدندوى لافرد الرشايدة نظـرته للغـريب المعـتدى على ارضـه •

والتى بموجبها يصير تملك الارض من حق الهدندوة وحدهم ولهذا السبب ينظر الهدندوى لافراد الرشايدة نظرته للغريب المعتدى على ارضه وهذا المفهوم الضيق المنحصر اضر بمصالح البلد من ناحـية الامـــن والتطوير الاقتصادى اذ تسبب من جراء ذلك قيام المشاحنات والمنازعات حول الارض مما ادى الى الاغتيلات الفردية والاضطرابات القبلية •لهذا ارجو ان يعاد النظر فى مثل هذه الاتفاقيات على اساس المصالح الوطنـية وبغرض صهر الكيان القومى وتوحيد الامة •

وينظر البدوى للصحراء على انها وطنه الاجتماعى وهو خال الذهن عن الروح القومية ولا يعرف دولة يخضع لسلطانها وقوانينها ويعمل لحسابها ويرى البدوى ان السلطة المركزية التى تمثل الدولة ليست الا وسيلة للحد من حرية افراد القبيلة وزريعة للتدخل فى شئونهم الخاصة فهم لا يلتزمون باى التزام نحو السلطة المركزية سواء أكان ذلك الالتزام هو الخدمة العسكرية او اداء العشور وسائر التكاليف العامة .

ولعل هذا هو السبب فى عدم الرغبة بل الامتناع عن دفع الجزية والضرائب لان البدوى يفقد الشعور العام بالمشاركة فى الوطن الكبير ولا يعرف ان له حقوقا وواجبات يجب ان يؤديها بخلاف تلك التى تنحصر فى عالمه القبلى .

ولهذا نرى ان هذا المفهوم السلبى للدولة لا يمكن ان يتفق مع تطور القطر والتنمية الاقتصادية ــ فنهضة القطر تتطلب ان يحل الولاء للدولة محل الولاء لمشايخ الخطوط والفرد يجب ان يكون فى خدمة الدولة والدولة يجب ان تكون فوق كل اعتبار حتى يعرف ماله وما عليه فالتعاون والتآخى بين المواطنين جميعا من اهم مقومات الدولة الحديثة .

(٦) العـادات والتقاليد (السوالف)

والوحدة القبلية تقوم على اساس متين وتماسك كما ذكرنا وتعتبر العادات والتقاليد الرابطة القوية التى تشد من هذا البنيان ويجد الفرد من خلال هذه العادات الامن الذى ينشده داخل القبيلة ولكل قبيلة عاداتها الخاصة التى تسرى بين الافراد كما تسرى القوانين واللوائح فى المجتمعات الاكثر تحضرا ويحترم افراد القبيلة هذه السوالف ويرضون عنها كل الرضاء فهى نابعة من حياتهم ومتمشية مع مقتضيات حياتهم البدوية وهم يفضون منازعاتهم بواسطتها ويحلون مشاكلهم بنصوصها التى يعرفها الجميع وان لم تدون ويحترمها الجميع بالرغم من انها لم تدون ولم تصدر بمراسيم أو منشورات وهى موضع الاحترام دون حاجة الى سلطة ترغمهم على احترامها ويعتبر من يخالفها خارجا منشقا ينظر اليه المجتمع البدوى نظرة فيها كثير من الازدراء والتحقير •

ترتبط التقاليد والعادات بالوضع القانونى داخل القبيلة فقد وضعت نظرية (الحكم غير المباشر) على اساس العادات المرعية داخل القبيلة — فقد رأت الادارة البريطانية ان تستفيد من التقاليد الموجودة داخل القبيلة الافريقية فوضعت نظرية (تخويل السلطات) الى مشائخ القبائل وكونت الادارات الاهلية على هذا الاساس •

وبدراسة العادات والتقاليد داخل القبيلة تتعرف على مثلهم العليا فى الحياة وصفاتهم الشخصية من كرم وشجاعة واحترام كذلك تتعرف على قيمهم الاجتماعية كادراكهم لمعنى الخير والشر والفضيلة والرذيلة ونظرتهم للجمال وتتعرف على مكانة المرأة فى مجتمعهم ووظيفتها فى الحياة القبلية •

ويتبين من كل ذلك ان العادات والتقاليد فى النظام القبلى عميقة الجذور ويعد من الحطل تجاهلها وهى تختلف فى كثير من التفاصيل عن العادات لدى القبائل الاخرى •

ولكننا فى تتبع دراساتنا للعادات نجد انها لا تتغير ولا تتطـور الا بالقدر اليسير الذى لا يؤثر على وحدة القبيلة وقد يكتسب افراد القبيلة بعضا من الصفات والعادات الجديدة بحكم امتزاجهم واختلاطهم مـع القبائل الاخرى او بحكم تغيير نظام حياتهم وانتقالهم من حياة الرعى الى الزراعة او الصناعة فهم بذلك يكتسبون عادات وتقاليد جديدة طبقـا للمجتمع الجديد ولكن القبائل التى تعتمد على الترحال تحتفظ غالـبا بعاداتها طول الزمن لذا عندما توضع برامج الاصلاح للقبيلة فلا بد ان تهيا بحيث تتفق مع التقاليد والسوالف .

ولكن هناك من التقاليد ما يعد ضارا بمصالح القبيلة خـاصة والدولة عامة فمثلا هنالك من اعادات التى ترتبط بالسحر والشـعوذة ويكاد السحر يسيطر على الحياة فى الجنوب فكل شىء يرجـع لقـوة الشياطين والمردة حتى لقد يمتنع الاهالى عن التعامل بالبيـع والشراء فى ايام مخصوصة فى الاسبوع .

ونجد مثلا أن بعض قبائل انجولا الافريقية تزرع فى ارض غير صالحة للزراعة فى المنحدرات وتترك الاودية الخصـبة ظنـا منهـا ان الادوية تسكنها ارواح الموتى كذلك نجد بعض القبائل التى تؤمن بالسـحر وتقدس الابقار ترفض ان تتعامل بها كسلع تجارية ومصدر دخـل للقبيلة والدولة .

وهذا مما يعد من الجمود الاجتماعى الذى يؤثر على اقتصـاديات البلدان المتخلفـة .

ومن ناحية اخرى فدراسة العادات والتقاليد القبلية تساعد على فهم الفنون الشعبية لدى القبائل وتكون النـواة لدراسـة الادب القـومى السودانى .

كما يجد الباحث الاجتماعى من دراسة هذه العادات مادة خصبة لمعرفة « ميكانيكية » الوضع القبلى والتكوين النفسى لدى الافراد والجماعات فيستطيع الباحث مثلا ان يدرس اثرها على الجريمة ويدرك دوافع الخير ونوازع الشر لدى هذه القبائل البدائية ـ ومثل هذه الدراسات ستلقى بلا شك ضوءا على تكوين المجتمع السودانى •

(٧) الاختلاط والامتزاج

يقول الدكتور « محمد عوض محمد» فى كتاب (السودان الشمالى) عن علاقة القبائل بعضها البعض فى السودان «نظرا لتعدد الاقاليم الجنسية فى السودان وفى الاقطار المجاورة له لم يكن بد من ان يكون على حدود تلك الاقاليم ضروب متفاوتة من الاختلاط والامتزاج بين السلالات من جهة وبين الثقافات من جهة أخرى ولم يساعد على هذا الاختلاط مجرد التجاور الاقليمى بل ساعد عليه بوجه خاص سهولة الارض وسهولة الانتقال فيها وانتشار حرفة الرعى التى لا تقيد الناس تقيدا شديدا بالارض التى يعيشون فيها والاختلاط والامتزاج على ضروب مختلفة ونقصد بالاختلاط اجتماع عنصرين مختلفين حتى يتالف منهما مركب جديد قائم بذاته ومن الاختلاط والامتزاج ما يتناول الصفات الجسدية وما يتناول الثقافات وحدها فيتاثر الناس بثقافة غير ثقافتهم مع بقاء دمائهم على ما كانت عليه تقريبا •

ومن امثلة الامتزاج ماتم بين العنج المسيحيين والعرب اثر هجوم الفونج والعبدلاب على مملكة المسيحيين فى اوائل القرن السادس عشر الميلادى فقتل من المسيحيين من قتل وفر من فر منهم ومن بقى اثر السلامة واعتنق الاسلام فامتزج بالعرب وتلاشى فيهم دما ودينا وثقافة •

اما عن مملكة دنقلا فانقلابها من المسيحيين للمسلمين ومن النوبة للعرب فعلى ما يظهر كان تدريجيا دون سفك دماء أو خراب ديار اللهم

الا تلك المناوشات الاولى فى زمن عبد الله بن ابى سرج حين كان واليا على مصر وقد تم ذلك قبل هذا الانقلاب الدموى الذى حدث فى المملكة الجنوبية .

يتضح من ذلك ان الامتزاج بين القبائل قد يكون عن طريق الحرب والقهر كما حدث فى المملكة الجنوبية وقد يكون الامتزاج تدريجيا وبمرور الزمن كما حدث فى مملكة دنقلا .

ومن المعروف ان القبائل عادة لا ترغب فى الامتزاج او الاختلاط مع القبائل الاخرى الا اذا جدت ظروف خارجة عن وحدة القبيلة لهذا السبب نجد افراد البيت الواحد يتزوجون من بنى عشيرتهم ولا يرغبون فى الزواج خارج عائلتهم وتفشت هذه الروح اليوم بين المجتمعات السودانية فنجد افراد العائلة يتزوجون من بعضهم البعض ويكرهون الزواج من القرباء الخارجين عن عائلتهم رغم ما فى ذلك من فوائد اجتماعية تعود على المجتمع بتجديد النسل وتنوعه .

ويرجع تمسك الاسرة بالزواج بين افرادها الى صلات الحسب والنسب مما يترتب عليه وجود اسر وقبائل نبيلة الاصل وقبائل مشتبه فى اصلها ويصعب الاختلاط فى ما بينها .

فهذه الحالة الناتجة من عدم المرونة القبلية تؤثر حتى على مظاهر النشاط الاخرى فى المجتمع . فنجد مثلا فى مجال الصناعة او الزراعة صعوبة فى انتقال الايدى العاملة بين أوجه النشاط المختلفة اذ تمنع الفرد النعرة القبلية والتعصب لبنى جلدته من أن يترك قبيلته ويذهب ليعمل مع افراد اخرين قد يكونوا فى نظرة اقل منه حسبا ونسبا وهذا السبب ادى الى ندرة الايدى العاملة فى مجال الزراعة مما فتح الطريق امام قبائل الغرب التى اصبحت تتدفق فى المشاريع الزراعية تعمل فيها بهمة

ونشاط بل صارت تمتلك الارض كما تجد فى مشروع القاش والجزيرة مثــلا ٠

ونسبة لان المهاجرين من ابناء الغرب يعملون باجور منخفضة فقد ادى هذا بالتالى الى انخفاض اجر العامل السودانى ومنافسته فى هــذا الحقل ومن المعلوم ان نخفاض الاجر يقلل من انتاجية العامل ويؤثر ذلك بطريق مباشر على تطور اقتصاد البلد ٠

(٨) عــــدم الاســتقرار

من خصائص الوضع القبلى عدم الاستقرار ٠ ان عــــدم استقرار القبائل وتنقلها من مكان الى اخر طلبا للمرعى والماء ومستلزمات الحيــاة يؤثر على وضع البلد الاقتصادى والقطر لا يمكن ان يصيب نجاحا باهرا فى نهضتة الا اذا كان وحده متماسكة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية

فاذا كانت القبائل تنتقل من مكان الى اخر فمن الصعب على الدولة الناشئة التى تحتاج الى الوفير من المال ، من الصــــعب عليها جبــاية الضرائب وملاحقة افراد القبيلة من مكان الى اخر وتجد الادارة صعوبة شديدة فى جلب الضرائب والجزية خصوصا من القبائل المتاخمة للحدود اذ تلجأ القبائل الى الهروب داخل الدول المجاورة ومما يساعد على ذلك ان تكون المناطق جبلية وعرة وصعبة المسالك لذا يصعب على رجــــال الادارة ان يصلوا الى القبائل لمحاسبتهم اذ انهم يتعرضون للضرر ــ كما تكلف هذه العملية اموالا كثيرة ومن الامثلة لذلك تلك القبائل التى تعيش فى الجنوب فى كبويتا حيث تخرق القبائل حدود الحبشة وكينيا حاملة معها ماشيتها كذلك قبائل شرق السودان من البجا والرشايده التى كانت تهرب الى ارتريا خلاصا من دفع الجزية ٠

ان عدم الاستقرار والتنقل من مكان الى اخر خلق فى البـــدوى الاحساس بالحرية والانطلاق وحب الهجرة وكراهية الاستقرار فى مكان واحد وتأثر بذلك الذين انتقلوا الى اماكن الزراعة والصناعة وتفشت هذه الروح بين العمال وخصوصا من ينتمون الى قبائل مترحلة •

فنجد العامل كلما اكتسب قدرا من المال يفى بحاجته ترك العمــل وذهب الى اهله ولا يعود للخدمة الا بعد ان يقضى على ما اكتسبه •

ولهذه العادات مساوئها فى مجال الصناعة اذ لايمكن ان ترفـــع انتاجية العامل الا اذا توفرت له الخبرة الفنية وهذه لاتتكتسب الا بالمران والمثابرة فعدم الاستمرار فى العمل يعود بالضرر فى تطور الصناعة كذلك نجد البدوى يحتقر الزراعة ويكره الصناعة لان ظروفها تتعارض مـــع مطالبه فى الحرية والنزوح اذ لا يمكن ان تنشأ الصناعة مالم يوجـــد الاستقرار فهذه العقلية اليونانية التى كانت تكره الصناعة وتعتبر مـــن اعمال الخدم لا تزال تتفشى فى البلدان المتخلفة وخصوصا المجتمعـــات القبليـــة •

الحـــدود

ادى عدم استقرار القبائل الى ازدياد الهجرة الى السودان • فنجد مثلا ان القبائل التى تعيش على حدودا السودان تنتقل بين الســـودان والدول المتاخمة وذلك لان معظم هذه القبائل منقسمة بين الســـودان والدول الاخرى مثل قبائل البنى عامر التى يعيش معظمها داخل ارتريا • فطبيعة الارض وسبل كسب العيش ساعد على هــذا التنقل وبالتالى ضاعف من ازدياد الهجرة للسودان ويجد المسئولون صعوبة شـــديدة فى ايقاف هذه الهجرة ويرجع السبب فى ذلك لان أفراد القبائل لا يدركـــون المعنى السياسى او الجغرافى للحدود الدولية • ثم ان ترابط الاسرة اقوى من ان تحدها خطوط وهمية ــ فهذا الوضع ربما يجلب معه كثيرا مـــن مضار الهجرة وبالذات فى حالة نقل الوباء والامراض المعدية للسودان • كذلك يسبب مشاكل الحـــدود بين الدول واخيرا من اهم مضار عـــدم الاستقرار انه لايساعد على انصهار الكيان القومى •

(٩) اسس العدالة فى المجتمع القبلى

(١)
التعريف على المجتمع

المجتمع عبارة عن مجموعة من الناس تربط افرادها بعضهم ببعض صفات مُشتركة ويعيشون معا يتبادلون المنافع ويعملون سويا مدة طويلة من الزمن على مايواجههم من مشكلات الحياة وتجمعهم فى ذلك هيئة منظمة تودى بهم الى وحدة اجتماعية تحدد العلاقات بين افرادها وتهدف الى اغراض متباينة مشتركة .

وبناء على ذلك تكون خدمة المجتمع هى البحث عن اهداف تشمل المجتمع وتشمل هذا التعريف ــ هذا عن المجتمع العام اما عن المجتمع المحلى القبلى فانه يتميز بان افراده يعيشون فى مكان معين محلى أو ينتقلون من مكان الى اخر حسب مستلزمات حياتهم وان افراد هذا المجتمع اكثر تعاونا فى الاهداف من افراد المجتمع العام وهذه المعيشة فى رابطة واحدة تجعلهم فى استعداد اكثر للتعاون فهذه الاتصالات تدعو للوحدة والتكامل ــ كذلك نجد ان هذه الاتصالات النفسية تدعوهم الى انشاء مؤسسات كما تنظم العلاقات بينهم وكلما زاد هذا المجتمع المحلى كلما زادت حاجاته وتعقدت تلك النظم التى يتبعونها . فاذا المجتمع المحلى يمتاز بان هنالك جماعة تضع نظاما كى يسير عليه باقى الافراد ويتمتع هذا المجتمع بشخصيته وبان افراده يهدفون الى اهداف مشتركة ــ هذا باعتبار عدم وجود طبقات فى مثل هذه المجتمعات البدائية .

ويجدر بنا عند دراسة المجتمعات بقصد معرفة خصائصها ان نقوم اولا :

---

(١) « ارجو الرجوع الى كتاب محمد كامل البطاريق »
« الخدمة الاجتماعية . مهنة ذات علم وفن »

(١) بجمع المعلومات عن سكان المجتمع وحاجاته

(٢) تحليل موارد وخدمت المجتمع

(٣) الموازنة بين الخدمات والموارد

(٤) تحليل العوامل الاجتماعية التى تتفاعل داخل المجتمع

وعندما نريد ان نكشف عن ظاهرة اجتماعية فى مجتمع ما بقصد استنباط قانون اجتماعى يسهل تعميته على افراد المجتمع فلا بد من الاتصال المباشر بالافراد والمجاعات مع ملاحظة اختيار وسائل الاتصال وكيفية المناقشة واثارة الاهتمام والوصول الى المشاركة

ومن خصائص كل مجتمع انه كائن حى يتطور ولا يوجد مجتمع جامد مهما بدأ لنا وان كل تطور لابد ان يصحبه تغيير فى العلاقات الاجتماعية وتقطع بهذه الحقيقة كافة الاحصاءات حتى فى المجتمعات التى تتميز بطابع الاستقرار مثل المجتمعات القبلية وقد حاول علماء الاجتماع ان يبحثوا فى تطور العلاقات وانتهوا الى ان المجتمع بسبب تعدد وظائف الجماعات التى فيه اصبح معقدا غاية التعقيد حتى انه من الصعب على الانسان العادى ان يجد وسيلة مناسبة لتحقيق التجانس بين هذه الجماعات المتبالية •

وليس ادل على ذلك من التنافر الموجود داخل القبيلة بل الاسرة ناهيك من الخلافات الناشبة بين القبائل المتخلفة ، وتيجة لتطور المجتمع برزت النظريات العلمية مثل (نظرية النسبية) وانتقلت هذه من الطور التجريدى الى الناحية العلمية التطبيقية وعلى الرغم ما فيها من شوائب فقد اتخذها بعض علماء الاجتماع اساسا لتحليلهم لمعرفة المجتمع •

واذا سلمنا معهم ان المقاييس الاجتماعية تختلف بدرجة نسبية الا ان هذا لا يتنافى مع وجود مقاييس عامة اتفقت عليها الامم مع اختلاف أوضاعها الداخلية فمثلا ان هنالك اتفاق عام على الحقوق الانسانية التى تهدف الى تكافؤ الفرص وتتيح حرية التعبير والعقيدة وحق تقرير المصير وعلى هذا المقياس قد اتفقت الامم ايضا على وجوب اسس العدالة ومساواة الافراد امام القانون ومعنى ذلك ان اختلاف البيئات ودرجة تطورها وحظها من الرقى والتأخر لا ينهض عذرا للتقاضى عن اسس العدالة وحرمان الافراد من حقوقهم الاساسية كمواطنين فى الدولة .

صحيح لابد للمشروع ان يضع فى الاعتبار عادات المجتمع والتقاليد المرعية عندو ضع القوانين شريطة ان تتفق هذه العادات والتقاليد مع اسس العدالة ويجب ان ينبذ ما ينافى ذلك وعلى هذا الاساس وضعت قوانين المحاكم الاهلية ونظمت سلطة النظار والعمد ولكن تقابلنا هنا معضلة اخرى نجدها فى معظم الظواهر الاجتماعية وهى الفارق بين النظريات والواقع المحسوس . فهل فعلا تطبق قوانين المحاكم الاهلية على المجتمع القبلى على اساس العدالة كما نص بذلك المشرع ؟

الواقع ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب قدرا من الصراحة يجب ان تتوفر لمن يكون غرضه تحقيق النفع وارساء العدالة فى مجتمع يفتقر الى مثل هذه العدالة .

اولا : تكوين النظام القبلى نفسه يجعل مهمة تحقيق العدالة صعبة وعسيرة . يقف على رأس هذا النظام شيخ القبيلة وهو الذى يمثل حجر الزاوية فى البناء القبلى وهو اب القبيلة وراعيها وبيده السلطات القضائية والادارية ومن حوله ابناؤه وابناء عمومته واقاربه من البيت الواحد

تجمعهم صلة الدم واواصر الاسرة فتتوزع حسب ذلك السلطات الادارية والقضائية بين الاسرة الواحدة ٠

واذا علمنا ان الوضع القبلى يحتم وجود منازعات بين البيوتات المختلفة والاسر والاقارب داخل القبيلة لادركنا ان طبيعة النظام القبلى تضع السلطات القضائية والادارية بين اناس أقل ما يوصفون به ان لهم اعداء تقليديين من البيوتات الاخرى وهذا ما يتنافى مع صفة الحيدة التى يجب ان يتصف بها القاضى العادل النزيه ٠

ثانيا : ان لشيخ القبيلة عداء تقليديا مع القبائل الاخرى سببها المنازعات حول المرعى والماء والارض وهذا ما يجعله فى موقف يستطيع ان يستغل فيه السلطات الممنوحة له الى حد بعيد لينال من خصومه ٠

حقيقة ان المشرع قد وضع بعض الضمانات القانونية فى يد المسئولين فى الادارة والقضاء لتفادى مثل هذه المفارقات مثل سلطة الاستئناف التى غالبا ما تكون فى يد مفتش المركز أو القاضى المقيم ولكن هل تحقق هذه الضمانات فعلا العدل المنشود ؟

ان هنالك بعض العادات القبلية الضارة التى تتعارض مع اسس العدالة والتى تقف حائلا دون تنفيذ هذه الضمانات القانونية فمن تجاربى الذاتية مع أفراد القبائل المختلفة الاحظ ان الفرد لا يرغب فى ان يتقدم باستئناف ضد حكم رئيس المحكمة لانه يرى فى ذلك ما يعيبه بين قومه ولذا يؤثر الصمت والسلامة رغم الغبن الذى يشعر به مخافة ان يتعرض لمجافاة اهله بخروجه عن القواعد والتقاليد المرعية ــ او لانه يعتقد انه ربما يجلب على نفسه غضب شيخه اذا ما استأنف ضد حكمه ٠

لهذه الاسباب نجد ان الذين يتقدمون بالاستئناف لا يزيد عددهم عن الواحد فى العشرة وهذا ما يقلل من فرص العدالة بين الافراد المحكومين ٠

بهذا اردت ان اتعرض الى ظاهرة واحدة داخل المجتمـــع القبلى تؤثر على سير العدالة وارى ان مثل هذه المواضيع الحســاسة لا يمكن ان تعالج عن طريق الاثارة والنيل من الاشخاص لكنها من المواضيع التى تتطلب تفكيرا هادئا متزنا يدرك سلفا ان الظواهر الاجتماعية مهما بدات متناقضة يرجع اساسها الى عوامل اقتصادية واجتماعية لابد من معالجتها أولا قبل الخوض فى مسائل فرعية ٠

والعدالة كاى ظاهرة اجتماعية اخـرى مرتبطة اساسا بالوضـــع الاقتصادى والاجتماعى والتكوين النفسى وعوامل الوراثة لدى الافراد والجماعات داخل القبيلة فلا بد من ان نضع فى اعتبارنا الكـيان القبلى فى جملته قبل الحكم على الظواهر الفردية وبذا فقط نستطيع ان نصل الى الحلول المطـــلوبة ٠

انتهى



المؤلف

★ تخرج من جامعة الخرطوم عام (١٩٥٤)

★ يشغل الآن وظيفة مساعد مفتش بوزارة الداخلية .

★ كتب عدة مقالات وترجم بحوث عن الحكومة المحلية عندما كان ببلدية الخرطوم (٥٦ — ١٩٥٧) .

★ كتب عن « الرشايدة » كمحاولة لدراسة القبيلة السودانية (١٩٥٩) .

★ ويعالج هذا البحث الاخير العلاقة بين الادارة والنظام القبلى من خلال الازمنة التاريخية المتعاقبة ويكشف عن خصائص هذين النظامين وإثرهما على الحياة السودانية (١٩٦٠) .

الاستعلامات

طبع بالمطبعة الحكومية بالخرطوم